رِسَالَةٌ فِي القَلْبِ

تأليف شيخ الإسلام

أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيَّ رحمه الله

تعليق أ. أناهيد بنت عيد السميري

اللّقاء الأوّل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكّلنا على الله، نبدأ في شرح: "**رِسَالَةٌ فِي القَلْب و أَنَّهُ خُلِقَ لِيُعْلَم بِهِ الحَقُّ ويُسْتَعمَلَ فِيْمَا خُلِقَ لَهُ.**"

وهي من تأليف: شيخ الإسلام **أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيَّ** رحمه الله.

قال:

فصل

إنَّ الله -سبحانه وتعالى- خلق القلب للإنسان ليَعلم به الأشياء، كما خلق له العين يرى بها الأشياء، والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق له -سبحانه-كلّ عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال؛ فاليدُ للبطش، والرّجل للسّعي، واللّسان للنّطق، والفم للذّوق، والأنف للشَّم، والجلد للَّمس، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظّاهرة.

فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خُلِق لهُ وأُعِدَّ لأجله، فذلك هو الحقّ القائم، والعدل الّذي قامت به السّماوات والأرض، وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العضو ولربّه وللشّيء الّذي اُستعمل فيه، وذلك الإنسان الصّالح هو الّذي استقام حاله و{أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[1].

* **وإذا لم يستعمل العضو في حقّه، بل تُرِكَ بَطَّالًا: فذلك خُسران، وصاحبهُ مغبونٌ.**
* **وإن استعمل في خلاف ما خُلِق له: فهو الضَّلالُ والهلاك، وصاحبهُ من الّذين بدَّلوا نعمة الله كُفْرًا.**

هذه مقدّمة الرّسالة قرّر فيها أمرين مهمّين:

الأمر الأوّل: حكمة الله في أنّه خلق كلّ عضو وله وظيفة وكيف أنَّ الله خلق القلب للإنسان ليعلم به الأشياء -هذا مقصده- لكن مثَّل بالأشياء المُدركة الّتي هي على القاعدة العقليّة البديهيّة: **أنَّ كلّ عضو له وظيفة.**

() سورة البقرة: ٥.

قال: (**كما خلق له العين يرى بها الأشياء، والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق له -سبحانه-كلّ عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال**): وهذا نحن على يقين به، خلاف ما يعتقد الملاحدة الّذين يقولون: "إن هناك أعضاء في البدن لا فائدة منها!" وتوجد ردودًا كثيرة لأهل العلم على هذا الهُراء، لكن نحن بالنّسبة لنَّا هذا شيء مسلّم بديهيّ عقليّ.

وضرب أمثلة: اليد للبطش، الرّجل للسّعي، اللّسان للنّطق، لا يوجد من يظنّ غير ذلك.

قال: (**وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظّاهرة**) يعني في داخل بدنك، كلّ شيء له وظيفيته.

الأمر الثّاني: انقسام النّاس في استخدام هذه الأعضاء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: أن يستعمل الإنسان العضو فيما خلق له وأُعِد لأجله.

القسم الثّاني: إذا لم يستعمل العضو في حقّه.

القسم الثّالث: إذا أُسْتُعْمِل في خلاف ما خُلِق له.

هذه ثلاثة أحوال، وكلّ حال يتقرّر عليها حال الإنسان ربّ هذا البدن، قال: (**وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العضو ولربّه**) يعني: "لصاحبه".

نبدأ الآن بالقسم الأوّل:

قال: (**فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خُلِق لهُ وأُعِدَّ لأجله، فذلك هو الحقّ القائم، والعدل الّذي قامت به السّماوات والأرض**).

تصوّر أنّك وقت ما تستخدم عينك في مكانها، ويدك في مكانها، وقدمك في مكانها، ولسانك في مكانه، تكون وضعت كلّ شيء في موضعه، كما يعبّرون "ستكون جزء من التّوازن البيئي" يعني: لن يختلّ ميزان العالم بسببك، كلّ واحد من العالم يفعل هذا الفعل، يستعمل أعضاؤه في مكانها، يجعل الحق قائمًا في العالم ويُحقّق العدل الّذي قامت به السّماوات والأرض.

فأنت الآن لو أردت أن تتكلّم عن الفترة الّتي يمر بها العالم اليوم، من جهة انتشار الأوبئة الصّحية، تستطيع بهذا الكلام أن تقول: إنّ سبب الأوبئة الصّحيّة؛ **الأوبئة الأخلاقيّة القيميّة**، الّتي جعلت النّاس لا يستعملون أعضاءهم في مكانها، وهذا سيتبيّن من خلال الرّسالة، سنرى أشرف عضو، وكيف أنّ هذا العضو ما استعمل في مكانه لذلك انقلبت الموازين كلّها، وأنت فكّر، في كلّ شيء حولك كيف انقلبت فيه الموازين، وكيف ما استخدمت القدرات في المكان الّذي من أجله خلق، وأُعِد.

قال: (**وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العضو**) أي: خير وصلاح للسانك، خير وصلاح لعينك، خير وصلاح لسمعك، خير وصلاح ليدك، لقدمك، خير وصلاح لذلك العضو ولصاحبه.

(**وللشّيء الّذي استعمل فيه**) للشّيء الّذي استُعمل فيه العضو، بمعنى: لو استَعمل هذا العضو في نفع النّاس فسيكون هذا الأمر الّذي استُخدم فيه العضو خير وبركة؛ لأنّك اجتهدت بما أعطاك الله، وفعلت ما تستطيع.

قال: (**وذلك الإنسان الصّالح**) إذًا الأوّل الّذي استَعمل العضو فيما خُلق له وأُعِدَ لأجله يعتبر هو الإنسان الصالح، وهو الّذي استقام حاله وهو الّذي مُدح في أول سورة البقرة {**أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} هؤلاء أهل الفلاح **ماذا صنعوا؟** انتفعوا من كلّ عضو فيما خُلق له وأُعِدَ لأجله.

نأتي للقسم الثّاني:

قال: (**وإذا لم يستعمل العضو في حقّه، بل تُرِكَ بَطَّالًا: فذلك خُسران، وصاحبهُ مغبونٌ.**)

هل استعمله في الباطل؟ لا هذا تركه بطَّالًا، فارغًا لا ينظر في حلال ولا في حرام، لا يفكّر في خير ولا في شرّ، وإن كان هذا لا يمكن أن يكون بهذه الصّورة لا بدّ لهذا البَطّال في النّهاية أن يلحق الباطل، لكن نحنُ سنفترض أنّ قدمه لم يمشِ بها لا للخير ولا للشّر، يده لم يبطش بها لا للخير ولا للشّر، يجلس بلا فائدة! هذا أكيد صاحبه خسران ومغبون، وفي هذه الحال قال النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: ((**نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاس: الصِّحَّةُ والفَراغُ**))[1] أمّا اليوم فبعض النّاس المحبوسون في البيت بسبب هذه الجائحة ينطبق عليهم هذا الوصف: خسرانين النّعمتين "الصّحة والفراغ" الحمد لله صحيحين وفي نفس الوقت يوجد عندهم فراغ، لكنّهم لا يعرفون أنّهم سيحاسبون، فكان أولى لهم أن يحبسوا أنفسهم على الحقّ وأن يأخذوا كلّ عضو من هذه الأعضاء وينتفعوا به، وأن ينظروا إلى كتاب الله، ويسمعوا كتاب الله، ويقرؤوا كتاب الله، ويفهموا كتاب الله، ويسعوا إلى ذلك بكلّ وسيلة يستطيعونها، لكنهم تركوا أنفسهم بطَّالين لا في خير ولا في شرّ! لكن هؤلاء أفضل من الحالة التالية.

القسم الثّالث:

قال: (**وإن استعمل في خلاف ما خُلِق له: فهو الضَّلالُ والهلاك**) وهذا ينطبق على أهل الكفر وأهل الفجور، فهؤلاء أعضاؤهم كلّها مستخدمة في الضّلال والهلاك، ويقول: (**وصاحبهُ من الّذين بدَّلوا نعمة**

() أخرجه البخاريّ (٦٤١٢).

الله كُفْرًا) **لماذا؟** لأنّه بدلًا من أن يشكرها باستخدامها في الخير، استخدمها في الشّر فكان كفرًا لنعمة الله، وهذا كلّه لا يحصل إلّا بسبب شيء أساسي متّصل بالقلب، لكن من الأشياء العجيبة الّتي يستعملونها استعمالًا على خلاف ما خُلق له، ما جاء من أخبار اليوم -والعهدة على النّاقلين في إعلامهم- أنّه بعد قرار إيقاف العمل عند أهل الكفر اصطفّوا لشراء الأسلحة **ماذا يريدون أن يفعلوا؟** أعطي خيالك كلّ شيء، هل سيقومون بعمليات السّطو والنّهب، أو دفاعًا عن أنفسهم لإحساسهم بالخوف، أو **ما هدفهم من عملهم هذا؟!** أنت حين تسمع الخبر ستفهم كيف يفكّرون لكن المهم أن تتخيّل كمّ الضّلال والهلاك الّذي يكون فيه الإنسان وكيف تصل إلى حال لا تعرف كيف يفكّر قلبه! ذهبوا، اصطفوا، بعض النّاس عندنا اصطفوا عند المواد الغذائيّة لأنّهم يريدون أن يعيشوا، لكن هؤلاء ذهبوا واصطفوا عند الأسلحة! سبحان ربّي العظيم. المهم هؤلاء القوم الّذين بدّلوا نعمة الله كفرًا.

المقصد أنّه بدأ يظهر لنَّا بوضوح أن مصيبتنا في ديننا، خصوصًا بعد أن حرمنا من سماع الصّلاة وقراءة الآيات في المساجد، فليس الخوف أن نصاب بالمرض، فهذا إن أصابنا فهو قدرنا، وقد كتب من قبل أن يخلق الله السّماوات والأرض بخمسين ألف عام.

ونسأل الله أن يجعل هذا المرض بردًا وسلامًا على من أصابه ويُخَرِجَهُ مِنْهَا إلى جنّات النّعيم إن كان هذا سبب موته، وإن كان له بعد ذلك حياة، نسأل الله أن يكفّر عنه السّيئات ويعجّل له بالشفاء والفرج. لكن المرض وتعطيل الدّراسة وكلّ هذه المصائب ترجع وتكون في دنيانا مهما كانت.

لكن المصاب الحقيقي الآن، أنّ الله يقول لنَّا: **"تحرمون من نعم الدّين"** يعني: بعدما كنّا بكلّ سهولة نرتاد الحرم أصبحنا الآن نفكّر مائة تفكير حتى نستطيع أن نرتاد الحرم، وكذلك كلّ الّذي كان متوفرًا حول الحرم وكنت بكلّ سهولة تذهبين وأنتِ لا تحملين همًّا ألّا تجدي متطلباتك، الآن كلّ شيء مغلق، الحرم وخدماته كلّها أصبحت في حالة ضيق، بذلك مُصابنا في ديننا؛ لأن النّاس كانوا يمرضون بأمراض أكثر من هذا المرض الّذي وقع على النّاس، لكن البلاء الآن ليس في المرض، البلاء أنّه تسلّط علينا شيء؛ بسببه نزع منّا كلّ شيء كان يسيرًا؛ لذلك بقاء الإنسان ذاكرًا أنّ مصابه الآن ليس في دنياه، يجعله يوجّه قواه للتّوبة وللصّلاة وللاستغفار وللدّعاء وللحفظ ولمراجعة المحفوظ، لا ينبغي أن يكون حديثنا طوال الوقت دائر حول كيف لا نصاب، أو ماذا نأكل؟ ماذا نشرب؟ ماذا نفعل؟ كل هذه الإجراءات نحن لسنا مختلفين فيها والحمد لله حكومتنا الرّشيدة رتّبت هذه الإجراءات لمصلحة النّاس، ليس مثل ما يقول أهل النّفاق: "إنّ هذه فرصة لإغلاق المساجد!" لا، نحن متأكّدون أنَّ حكومتنا الرّشيدة ما فعلت ذلك إلّا للمصلحة من أجل الحفاظ على حياة النّاس، ومثلهم مثل ديار المسلمين كلّهم، ما أرادوا بالنّاس إلّا خيرًا.

لكن الآن أنت لا تفكّر في الفاعلين، فكّر في ربّ هؤلاء الفاعلين كيف أنّه حرمك من هذه الأصوات النّديّة وهؤلاء الشّباب الصّغار الّذين تراهم في المساجد يحفظون، كلّ هذا أصبح ممنوعًا، ممنوعًا لمصلحتك! يا الله مصيبة كبيرة!!

ليس موضوعنا الكلام عن الإجراءات الاحترازيّة، أو معرفة كيفيّة الوقاية من الأمراض البدنيّة، إنّما موضوعنا هو أن تخرج وأنت قد تعلّمت درس: **أنّ النّعم الدّينيّة أسرع ذهابًا من النّعم الدّنيويّة**.

تصوّري أن نصبح في ليلة وما نستطيع أن نطوف في الحرم، نصبح في اللّيلة الثّانية ولا نتمكّن من الذّهاب إلى المساجد!!

وفي الدّعاء الوارد عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- عندما ندعو لمريض نقول: ((اللهمَّ اشفِ عبدكَ ينكَأ لكَ عدوًا، أو يمشِي لكَ إلى صلاةٍ))[1] فلمّا حُرِم الصّلاة، يكون حُرِمَ الوظيفة الّتي بسببها يكون وجود الصّحة، ولمّا يُحرم المكان الّذي يحفظ فيه القرآن بذلك يكون حُرِمَ المكان الّذي يقوم فيه بوظيفة عَينِه ولِسانه وقلبه وهكذا. فتكون عقوبة أن تُعَطّل عليك الأماكن الّتي تنتفع بها لإقامةِ حقّ العضو الّذي خُلِقَ له؛ ولذلك "**إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي**" أي شيء حرمنا منه لا نبالي، أي شيء ناقص علينا لا نبالي، **لكن عافيتك أوسع لنا**؛ لذا نحن لا نحتمل هذا الحال!

نسأل الله يغفر لنا جميعًا ويغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ولا يؤاخذنا بما فعل السّفهاء منّا. اللّهم آمين.

على كل حال، كلّها اختبارات أنتِ إذا بدأتِ بالنّظر إلى الموضوع بالطّريقة الصّحيحة؛ ستقومين بالوظيفة الصّحيحة، هذا اختبار يصدق فيه الصّادقين ويُطْرَد فيه الكاذبين المنافقين. ونحن على الله توكّلنا.

بعد أنْ قسَّم هؤلاء الثّلاثة أقسام، الآن سيتكلّم عن القلب الّذي هو **موضوعه الأساسي**:

قال:

ثمّ إنّ سيّد الأعضاء ورأسها هو القلب، كما سمّي قلبًا، قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

() أخرجه أحمد (٦٦٠٠) وحسّنه الألبانيّ.

((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألَا وهي القَلْبُ)).

وقال صلّى الله عليه وسلّم: (الإسلامُ علانيةٌ والإيمانُ في القلبِ.) ثم أشار بيده إلى صدره. وقال: ((ألا إنّ التَّقوَى ها هنا، التَّقوَى ها هنا.))

ابْن تيمية حدّد سيّد الأعضاء ورأسها الّذي يدور حوله صلاح باقي الأعضاء، فلم يتكلّم عن العين أو اللّسان أو الأذن، إنّما تكلّم عن سيّد الأعضاء الّذي ذُكر في الحديث أنّه إذا صَلُح، صَلُح الجسد كلّه، وبهذا يكون القلب مستحق للمناقشة وللكلام عن أعماله، وللكلام عن أحواله، وعن تقلّباته.

واليوم نحن نرى هذا، الّذي صَلُح قلبه بالإيمان، وصحّ منه التّوكل عرف أين يوجّه نفسه في هذه الأحوال الّتي نحن فيها، أمّا الّذي لم يصلح منه الإيمان أو كان ضعيف الإيمان تخبّط ولم يعرف ماذا يفعل وأخذته المخاوف إلى كلّ مكان، وأنت ممكن أن تقوم بالإجراءات الاحترازيّة وقلبك مطمئن وتعتبرها سبب كأيّ سبب، وممكن أن تقوم بأيّ إجراء احترازي قد قُرر عليك وأنت لا تستطيع أن تقف على قدميك من الخوف ومن الهواجس الّتي قد تُذْهِب بك!

وأنت حين تأخذ الإجراء الاحترازيّ اعتبره مجرّد سبب، إن شاء الله نفعك به، وإن لم يشأ الله لن ينفعك، بل إذا شاء الله ضرَّك، ليس شرطًا أن ينفعك السّبب، بل أنت تأخذ بهذا السّبب وأنت تفكّر في قصة البقرة...أمرهم الله -عزّ وجلّ- أن يأخذوا الجزء الميّت من البقرة ويضربوا به الميّت فأحياه الله، كلّ هذه الإجراءات كالجزء الميّت، لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عنك ضر، أنت تأخذها بالضّبط مثلما أمر الله بني إسرائيل بأن يضربوا الميّت بالجزء الميّت، لكن في داخلك تقول: "إذا قدّر الله أن يصيبني المرض؛ سيأتيني من باب لا أدري عنه شيء". وهل تستطيع رؤية هذا المرض بالعين المجرّدة؟! فلا بدّ أن تفهم أنّ القيام بالإجراءات الاحترازية مجرّد اعتذار لله أنّي فعلت الأسباب الممكنة بدون أن يكون في القلب أيّ شعور تجاه الإجراء الاحترازي، بدون أن يكون عندك مشاعر أنّها هي الّتي ستدفع المرض؛ لأنّه من غير المعقول أن يكون غسيل اليد بالصّابون في منزلة قول: **"بسم الله الّذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السّماء"** مستحيل أن يساويها بالمنزلة، فهذا القول لا بدّ أن يكون هو عمل القلب الّذي تشغله به ومن ورائه يأتي صلاح القلب، وصلاح البدن، وصلاح النّفس، وطمأنينتها، لكن غسل اليد بالصّابون يكون بمثابة استعمال الجزء الميّت، أقوم به وأقول: اعتذار لك يا ربّ العالمين أنّي قمت بالأخذ بالأسباب الممكنة.

وستنكشف الجائحة عن ناس مؤمنين سيقولون: فعلنا، وفعلنا كلّ الأسباب وما نفعنا شيء.

وستنكشف عن ناس مؤمنين سيقولون: لسبب أو آخر خالطنا المرضى وما أصابنا شيء.

وهذا قبل أن تنكشف الجائحة أهل الإيمان يقسمون عليه، أنّه قد يأخذ الإنسان بالأسباب ولا تنفعه بشيء، وقد يضطر لترك الأسباب لسبب ما -ليس تهاونًا- ولم يصيبه شيء. فالأخذ بالأسباب هو امتثال لأمر الله، ومن استحفظ نفسه الله فقد استحفظ نفسه بـ: **السّميع العليم البصير القريب الحفيظ**، فلا ننزع صفة الله ونعطيها لأيّ شيء وهذا من أكبر الاختبارات الّتي نمرّ بها اليوم.

فالمقصد أن الجسد إذا نظرت لصلاحه وفساده فأنت تكشف ما في القلب، فكلّ سبب نأخذه نحن مؤمنين أنّه لا ينفع إلّا بإذن الله ولا يدفع الضّر إلّا بإذن الله، وإذا تيقّنت بهذا

- اطمئن القلب.
- وسكنت النّفس، والبدن تبع لها.

وأنت بذلك تكون قويًّا، والمؤمن القويّ خير من المؤمن الضّعيف وفي كلٍّ خير، ولا تنسوا أنّ "القوي والضّعيف" المقصود بهما: في الإيمان، **المؤمن القويّ في إيمانه خير من الضّعيف في إيمانه**.

نسأل الله أن يجعلنا من أقوياء الإيمان الّذين تنكشف عنهم هذه الجائحة بمزيد من الإيمان ومزيد من اليقين ومزيد من معرفة الله -عزّ وجلّ- فتنفعهم في قبورهم وتؤنسهم هذه الجائحة في قبورهم، وعندما يلقون ربّهم يعتذرون له ويقولون: "أتى ما أخاف النّاس فتوكّلنا عليك وآمنّا بك ووثقنا بك واعتمدنا عليك ولم يكن في قلوبنا خوف إلّا من سخطك وغضبك وعرفنا أنّه لا يقع في الدّنيا إلّا ما تقدّره وعرفنا أنّ ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، فبذلك كفِّر عنّا سيّئاتنا، وارفع درجاتنا، واجعلنا في جنّات النّعيم!"

هذا ما يجب أن يكون في قلب الإنسان في مثل هذه الجوائح، وليس الخوف والارتعاد، ولا زلنا نقول: "هذا ليس له علاقة بكونك تقوم بالإجراءات الاحترازيّة" هذه الإجراءات الاحترازيّة أحد الاختبارات الّتي نمرّ بها، وعندما يأتي أحد يقول: إنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: ((فِرَّ مِنْ المَجْذُوم فِرَارَكَ مِنْ الأَسَد))[1] نعم، هذا النّص حفاظًا على الإيمان؛ لأنّه لو كان مقدّرًا عليك أن تُبْتَلى بالمرض وكنت في حال أنّك خالطت أحدًا مريضًا، وقلت: "فلان أمرضني" تكون خسرت من إيمانك الشّيء العظيم، طيب فلان حقيقي نقل المرض لأنّنا خالطناه جاء المرض، فلا بدّ أن يكون اعتقادنا بأنّ: المرض لا ينتقل إلّا بأمر الله.

() أخرجه البخاري (٥٧٠٧).

فالمقصد أنّ مثل هذه الاختبارات الّتي يدخلها النّاس لا بدّ أن يكون فيها شيء من التّوازن الّذي يدفع عنهم سوء العقيدة، هناك أنواع من الأمراض تنتقل بسرعة لأنّ الله جعل لها هذه الطّبيعة، ولكنّها لا تنتقل إلّا بأمر الله، والنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أكل مع المجذوم في إناءٍ واحد! طيب، كيف يقول النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- هذا الكلام ويفعل هذا الفعل؟ هناك قاعدة مهمّة في فهم كيف أنّ القلب هو أساس صلاح الأجساد.

سأترك المرض وأنتقل إلى مسألة بعيدة عنه، ولكن سنقيس بنفس الطّريقة:

- الآن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قَبِلَ من أبي بكر -رضي الله عنه- أن تصدَّق بمالهِ كُلِّه.
- وقَبِلَ من عمر أن تصدّق بنصف ماله.
- وقَبِلَ من بعض الصّحابة أيضًا أن يتصدّقوا بأعظم ما عندهم من مال وقال لأحدهم: (رَبِحَ البَيعُ رَبِحَ البَيعُ).
- ولكن أتى لبعض الصّحابة وقال: (الثُّلثُ والثُّلثُ كَثيرٌ)[1].
- وأتى رجل بذهيبة -ذهب في يده- وأعطاها للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فردّها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فأعطاه مرّة ثانية فردّها النّبيّ، ولما أعطاها المرّة الثّالثة أخذها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وهو كالمُغضب وقال: ((يأتي أحدُكم إلى جميعِ ما يملِكُ فيتصدَّقُ به ثمَّ يقعُدُ يتكفَّفُ النّاس إنَّما الصَّدقةُ عن ظهرِ غنًى خُذْ عنَّا مالَك لا حاجةَ لنا به))[2] فلم يقبل منهُ المال.

لماذا قبل من أبي بكر -رضي الله عنه- ولم يقبل من هذا الرّجل ولماذا رضي من أبي بكر كلّ المال ومن صحابي آخر قال له: "الثُّلثُ والثُّلثُ كَثيرٌ"؟

لأنّ الإيمان الّذي في النّفوس يُؤثّر، فهو يعرف -صلّى الله عليه وسلّم- أنّ إيمان أبي بكر ليس كإيمان الباقين، فالّذي يصدر من أبي بكر بعد هذا الحدث ليس كما يصدر من صاحب الذّهيبة الّذي يعطي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ماله كلّه ثم يسأل النّاس!

إذًا معنى ذلك: أنَّ نفس المسلك من إنسان مليء بالإيمان ليس نفس المسلك من إنسان ضعيف الايمان، وهذا يفهّمنا النّصوص أنّه ((لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا صَفَرَ))[3] قيلت لنّاس معيّنين ((فِرَّ مِنْ

() أخرجه البخاري (٢٧٤٢).

() أخرجه ابن حبّان (٣٣٧٢).

() أخرجه مسلم (٢٢٢٠).

المَجْذُوم فِرَارَكَ مِنْ الأَسَد)) قيلت لنَّاس معينين ((لَا يُوْرِدْ مُمْرِض عَلَى مُصِحْ))[1] قد كانوا يوردون الإبل على الماء، فعندما تأتي إبل مريضة وتشرب ستصبح هذه البيئة بيئة عدوى وسيأتي الرّجل يشتكي أنّ إبله مرضت لأنّ هذا أتى بإبل مريضة ومرضت لكن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بهذا قضى الأمر بين النّاس وفضّ الاشتباكات لأنّنا لا نعرف قَوِّي الإيمان من ضعيف الإيمان، لكن في النّص الثّاني عندما قال الرّجل للنّبي -صلّى الله عليه وسلّم- إنَّه عندما يُدخل الإبل المريضة على الإبل الصّحيحة تمرض فقال له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: من أمرض الإبل الأولى! ألم يصبها الله -عزّ وجلّ- بالمرض! فالتّسلسل هذا بأمر الله.

ولذلك فسّر أهل العلم قول النّبيّ: ((لَا عَدْوَى)) أي: لا عدوى بذاتها، فليست هي الّتي تعدي بذاتها والآن ليس وقت أن يقال هذا الكلام للنَّاس وهم في هذه الجائحة وهم في هذه الحالة، وهم نفوسهم ثائرة، فتقول لهم: ((لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَة وَلَا صَفَر)) أنت بهذا تكون مخطئ، ولكن قل لهم: "**خذوا بكل إجراء احترازي قد قرّرلكم، وقلوبكم مطمئنّة أنّ الله الحفيظ، الله الشّافي، الله الكافي.**" فحتى وأنت في الطّرح لا بدّ أن تعرف أنّه لا يُقصد بهذا النّقاش أبدًا تقليل قيمة الإجراءات الاحترازيّة المُتّخَذَة، ونحن في بداية الكلام اتّفقنا أنّ هذه الإجراءات الاحترازيّة من جهة القرارات هي قرارات رشيدة، لكن من جهة البليّة الّتي وقعت علينا فهي عقوبة علينا، أن تُغلق المساجد لكي تُحفظ أبداننا! وأنتم تعرفون أنّ من مقاصد الشّريعة **حفظ الأبدان وحفظ الأديان**، فإذا تعارض الاثنان وكان يمكن القيام بحفظ الأديان مع مراعاة حفظ الأبدان أُخذ بذلك، فالآن إغلاق المساجد حفظ للأبدان وفي نفس الوقت، لم يقل لك أحد: "لا تصلّ"، بل صلِّ، فنحن وصلنا لحالة أنّنا اضطررنا إلى اختيار أحد الأمرين وهذه هي العقوبة، وقد كان يقال لك: "حيّ على الصّلاة حيّ على الفلاح" وأنت تنزل تجرّ نفسك كأنّك ميّت! الآن صلّوا في بيوتكم. والله المستعان!

إذًا العقوبة الّتي نزلت علينا هي أنّنا صرنا لا نستطيع أن نحفظ أبداننا إلّا بخسارة الكمال في أديانا، لكن نحن مؤمنون أنّه زمن ويمرّ وينكشف إن شاء الله، ينكشف عن قلوب مؤمنة تقيّة، غدًا إذا حدّثتها نفسها بالكسل، هجمت على نفسها هجومًا وذكّرتها بما حصل.

قال:

وإذ قد خُلِق القلب لأن يُعْلَمَ بِهِ، فتوجُّههُ نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنَّظر، كما أنَّ إقبال الأُذن على الكلام ابتغاء سمعه هو الإصغَاء والاستماع، وانصرافَ الطَّرفِ إلى الأشياء طلبًا

() أخرجه مسلم (٢٢٢١).

لرؤيتها هو النظر، فالفكر للقلب كالإصغاء للأُذن، ومِثلُهُ نَظَر العينيين فيما سبق، وإذا عَلِمَ ما نظر فيه فذاك مطلوبُهُ، كما أنَّ الأُذن إذا سمعت ما أصغت إليه، أو العينَ إذا أبصرت ما نظرت إليه.

وكم من ناظر مفكّرٍ لم يُحصِّلِ العِلمَ ولم يَنَلهُ! كما أَنَّهُ كم من ناظر إلى الهلال لا يُبصِرُهُ، ومستمع إلى صوتٍ لا يسمعُهُ!

وعكسُهُ من يؤتَى عِلمًا بشيءٍ لم ينظر فيه ولم تسبق منه إليه سابقةُ فكرٍ[1] فيه، كمن فاجأته رؤية الهلال من غير قصد إليه، أو سمع قولًا من غيرِ أن يُصغِي إليه؛ وذلك كُلُّهُ [2] لأن القلب بنفسهِ يقبل العلم، و إِنَّمَا الأمر موقوفٌ على شرائط واستعدادٍ قد يكونُ مَطلوبًا، وقد يأتي فضلًا من الله فيكونُ موهُوبًا.

فصلاح القلب وحَقَّهُ والذي خُلِقَ من أجله، هو: أن يعقل الأشياء، لا أقول أن يعلمها فقط؛ فقد يعلمُ الشّيء من لا يكون عاقلًا له، بل غافلًا عنه مُلغِيًا له.

والّذي يعقل الشّيء: هو الّذي يقيده ويضبِطُه ويعيه ويُثبته في قلبه، فيكون وقت الحاجة إليه غنيًا، فيُطابقُ عَمَلُهُ قَولَهُ، وباطِنُهُ ظاهرهُ، وذلك هو الّذي أُوتِيَ الحكمة، {وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}[3].

وقال أبو الدّرداء: إنَّ مِن النّاس من يؤتى عِلمًا ولا يؤتى حكمًا، وإنّ شداد بن أوس ممن أُوتي علمًا وحكمًا.

هذا مع أنَّ النّاس متباينون في نفس أن يعقلوا الأشياء من بين كاملٍ وناقصٍ، وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير، وجليل ودقيقٍ، وغير ذلك.

هنا بيان لحالة القلب من جهة الوظيفة الّتي يقوم بها يقول: (وإذ قد خُلِقَ القلب لأن يعلم به) هذه الوظيفة، (فتوجّهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنّظر) يعني: عينك تتّجه للأشياء لتراها وأذنك تنصت لتسمع.

تذكرون هاجر حين كانت تسير بين الصّفا والمروة فأتى جبريل هناك فقالت لنفسها: "صِه"، أي: اسكتي، هيا لم تكن تتكلّم، لكن كأنّها تستجلب السّماع، كأنّها تقول: ركّزي، حتى تسمع.

١() في طبعة "مجموع الفتاوي (٣٠٩/٩): "سابقة تفكير.....:

٢) في طبعة "مجموع الفتاوي (٣٠٩/٩): "وذلك كله لا لأن القلب .." بزيادة (لا).

٣) سورة البقرة: ٢٦٩.

فعينك الآن تبحث عن مكان المنظور، وأذنك تشتدّ قواها لتسمع المسموع، وقلبك يتّجه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها.

ما اسم العمليّة الّتي يتّجه بها نحو الاشياء؟ الفِكر والنّظر، حتى يعرفها يفكّر فيها، يقول: (**كما أنّ إقبال الأُذن على الكلام ابتغاء سمعه هو الإصغاء والاستماع**) هذا الّذي كانت تقوله هاجر: "صِه"، اسكتي حتى تسمعي.

(**و انصرافَ الطَّرفِ إلى الأشياء طلبًا لرؤيتها هو النّظر**) التفات النّظرِ لرؤية الأشياء.

إذًا عينك تلتفت للشّيء الّذي تريد أن تنظر إليه، وأذنك تلتفت للشّيء الّذي تريد أن تسمعه.

بقي علينا القلب، كيف يلتفت؟ بالتّفكير والنّظر، يدور الشّيء في داخله، فالفِكر للقلب كالإصغاء للأُذن ومثله نظر العين، يعني: إذا كنت تفكّر بقلبك كأنّك تسمع بأذنك، كأنّك تلتفت إلى المنظور بعينك.

(**وإذا عُلم ما نظر فيه فذاك مطلوبه**) كما أنّ الأذن إذا سمعت إذًا حصل السّمع مطلبها، وإذا أبصرت العين فهذا مطلبها.

هنا سؤال: **هل كلّ ناظِر مُفكر يعلم؟** الجواب: لا.

يقول: (**وكم من ناظر مفكّر لم يُحصِّل العلم ولم يَنلْه**) ما نال العلم ولا حصلّه، وشبّه هذا **بمن؟** قال: (**كما أَنَّهُ كم من ناظر إلى الهلال لا يُبصِرُهُ، ومستمع إلى صوتٍ لا يسمعُهُ!**).

الآن سنذكر حالة ثانية:

هل يمكنني أن أتعلّم بدون نظر؟ قال: (**وعكسه من يؤتى علمًا بشيء لم ينظر فيه ولم تسبق إليه منه سابقة فكر فيه**) وهذا من العجائب، لكن هذا صحيح.

(**كمن فاجأته رؤية الهلال من غير قصدٍ إليه**) هناك ناس يبحثون عن الهلال، ويوجد إنسان رفع عينه ينظر إلى السّماء فوجد الهلال. فاجأه. كذا الفكر أيضًا، ممكن ألّا يكون اجتهد لكن أُعطيه، هذه عطيّة.

وهذا الشّيء يجعلك تفهم أنّ العلم هبة، زيادته وتوسّعه هبة من ربّ العالمين، قد يكون عندك أدواته وتكون ساعيًا له...صحيح، لكن لن تحصّله إلّا حين يهبك الله.

قال: (**كمن فاجأته رؤية الهلال من غير قصد إليه، أو سمع قولا دون يُصغِي إليه**) هو لم يركّز ليسمع، لكن سمع القول (**وهذا كلّه؛ لأنّ القلب بنفسه يقبل العلم**) أنت تقولين: هو في الأصل لم يفكّر، كيف فهم مباشرة؟ لا، هو مثل العين بالضّبط، إذا أتتها الأشياء؛ رأتها ولا تقولي: لا والله، لم أقرّر أن أراك! كذلك القلب تحضر له الفكرة، يأتيه الفهم.

(**وإنَّمَا الأمر موقوفٌ على شرائط واستعدادٍ قد يكونُ مَطلوبًا، وقد يأتي فضلًا من الله فيكونُ موهُوبًا**) فمن أجل ذلك دائمًا تأتي نقاشات حول العالم الفلاني كيف يفهم المسألة ويحلّلها بهذه الطّريقة؟ يكون هو دائم النّظر فيصل إلى أن يصبح لديه ملكات، وهناك أمر آخر: هو **موهوب** موهبة الأداء والفُهُوم توهب له، هبةً، ولا بدّ أن تعلم أنّ أغلب العلم من النّوع الثّاني وليس الأوّل؛ لأجل ذلك لا تنازع العلماء، لا تتعامل مع العلماء وتقول: من أين أتى بهذا؟ وهذا، ليس تقديسًا، ورفعًا للعلماء عن منزلتهم لا، ليست بهذه الصّورة، المفترض أن يكون هذا موقف انبهار بعطايا الله. مثله حين تقرأ للإمام مالك -رحمه الله- تقرأ للشّافعي، هذا الرّجل الذّكيّ، الشّافعي يبهرك بذكائه، فطنته، قدرته على استنباط المسائل من أمور دقيقة لا تمرّ على خاطرك، فهذا هبة بدون أي كلام فيها، لكن المشكلة تكمن هنا في اللّوثة العلمانيّة، عندما يبرزون لك من العلماء الأذكياء، يقولون لك: "ابن سينا" فيبرزون النّاس الّذين برعوا في المسائل الدّنيويّة يخَرّجُون النّاس الّذين برعوا في الكيمياء، الطبّ، ليس هؤلاء هم الأذكياء الّذين كانوا في عصور المسلمين، هذا الشّافعي لديه رسالة اسمها (الرّسالة) معروفة، هذه الرّسالة تتعلّم منها، ليس الفقه، بل كلّ شيء تريد أن تتعلّمه؛ ولذلك كانوا يقولون: "من أراد أن يتعلّم العقل فليقرأ الرّسالة" العقل نفسه كيف تعقل الأمور، كيف تفهمها، كيف تفكّر فيها.

ما يُغضب الآن، أنّ عامة المؤمنين المتّقين لا يكونون فخورين بهؤلاء الّذين أعطاهم الله -عزّ وجلّ- العلم هبةً وهبهم إياه، وأعطاهم من أنواع الذّكاء ما لم يتكرّر إلى الآن، نحن الآن من عصر الشّافعي إلى الآن لم يتكرّر مثله، بهذا تفهم لماذا كان الإمام أحمد وهو في كلّ صلاة يدعو للشّافعي؛ لأنّه أعطى من العلم ما قد يوفّر على النّاس مائة سنة بحث، وفهم، وفتح كتب، وفّر عليك، أعطاك النّتائج، وفي النّهاية، كأنّه يعطيك جزء من عقله، ثمّ بعد ذلك تفكّر بنفس عقله، وتنبهر بالنّتائج، فلذلك نحبّه ونحترمه، وندعو له، لكن فكّروا الآن: أين طلبة العلم عن نشر فضائل هؤلاء الأوائل الّذين معرفتهم تفهمك هذا المعنى؟ **"أنّ الله يهب لبعض النّاس هبات خاصة ويكونون جندًا للشّريعة."**

البخاريّ وما أدراك ما البخاريّ! صدّقوني نحن سبب من الأسباب في الهجوم والطّعن على البخاريّ، والسّبب أنّنا لم نشغل ليلنا ونهارنا ونقول: تعالوا لحديث الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وانظروا إلى وعاء

العلم الّذي جعله الله -عزّ وجلّ- لهذا الحديث وانظروا كيف رزقت الأمّة بهذا! وعاء علم البخاريّ الّذي عنده الحديث الواحد يقطعه تقطيعات، ويستنبط منه استنباطات مبهرة. ألم نقصّر!! بلى، قصّرنا. نستغفر الله العظيم.

فهذه أوعية العلم الّتي استودعها الله -عزّ وجلّ- العلم وكان الواجب علينا أن تكون بالنّسبة لنَّا كالرّموز الشّامخات الّتي أتت بعد عصر الصّحابة الكرام انظر أبو بكر -رضى الله عنه- واستنباطاته، انظر عمر -رضي الله عنه- واستنباطاته، انظر عثمان -رضي الله عنه- واستنباطاته، انظر عليّ الحكيم -رضى الله عنه- الآن له من الأقوال المأثورة ما تستطيع أن تحكم بها، لكنّا مقصّرون. نسأل الله أن يغفر لنا!

إذًا لا بدّ من معرفة: أنَّ العلم يكون بالطّلب وتكون له شروط واستعدادات، وقد يأتي فضلًا فيكون موهوبًا، وهذه عطايا.

الآن صلاح القلب وحقّه والّذي خُلق من أجله هو: أن يعقل الأشياء. يقول ابن تيمية: (**لا أقول أن يعلمها فقط؛ فقد يعلمُ الشّيء من لا يكون عاقلًا له، بل غافلًا عنه مُلغِيًا له.**) إذًا حقّه أن يعقل الأشياء. **كيف يعقلها؟** ما الدّرجة بين أن يعلمها وبين أن يعقلها! وبهذه الدّرجة ستفهم لماذا كثير من المتعلّمين لا يصلحون أن يكونوا مرشدين، يكون هو طالب علم لكن لا يصلح أن يكون مرشدًا **لماذا؟** لأنّ هناك فرق بين العلم والعقل.

قال: (**والّذي يعقل الشّيء: هو الّذي يقيّده**) التّقييد مثل السفينة المقيّدة، فالمعنى يكون كذلك في عقله أي: مربوط ثم يكون مضبوطًا ليس متداخلًا مع المعاني الأخرى، وكذلك عنده وعي به، الوعي: هو أن يستطيع أن يُخرج الإنسان من قلبه من العلوم ما يناسب الموقف الّذي يتعرّض له، سنشبّه بتشبيه بسيط: الآن أنتِ ربة منزل كلّ أوّل شهر تذهبين وتشترين الأغراض الّتي تحتاجينها، بعد ذلك احتجتِ عمل أكلة معيّنة لها أدوات، فاشتريتها من جديد! مع إنّ الأغراض عندكِ في الدّولاب لكنّك لم تعي أنّها موجودة!

إذًا، الوعي: كأنّك تستورد المعلومة الّتي عندك في الوقت المناسب.

ومثل الحجّ تُدرِّسين النّاس قبل الحجّ، ثمّ بعد الوصول تُعرض عليكِ المسائل، فإذا لم تكوني واعية لن تتذكّري!

إذًا **متى يعقل الإنسان الأمر؟** عندما يقيّده، يضبطه، يعيه.

ولذلك كانوا دائمًا يقولون في حياة الشّيخ ابن باز والشّيخ ابن عثيمين -رحمهم الله ورحم الله جميع علمائنا- : مَن نسأل؟ ونترك الشّيخ ابن باز الّذي حجّ ٤٠ حجّة! فكلّ مسألة فقهيّة وعاها وثبتت عنده، سبحان الله! وتوجد قصّة بينه وبين الشّيخ عبد القادر شيبة الحمد -رحمه الله- : الشّيخ عبد القادر وهو يؤلّف كتابه في شرح بلوغ المرام كان يبحث عن حديث الجهاد في البخاريّ وبحث في كلّ مظانه ولم يجده، وزار الشّيخ ابن باز أوّل سنة وسأله أين تكلّم ابْن حجر عنه؟ والشّيخ ابن باز لم يتذكّر، وعاد عليه في السّنة الثّانية زاره أيضًا ولم يتذكّر الشّيخ، والسّنة الثّالثة جاء الشّيخ عبد القادر وسأل الشّيخ ابن باز فاستحضر الشّيخ بن باز مكان الحديث وهو مكان غريب! الشّاهد: أنَّ الشّيخ ابن باز طلب من طالبه الّذي يقرأ عليه صحيح البخاريّ بأن يحضر له الصّحيح، وتذكّر إلى أن عقله إلى أن وعى أين مكانه.

أنتِ تتعجّبين الآن من الطّرفين! تتعجّبين من صبر الشّيخ عبد القادر شيبة الحمد ثلاث سنوات وهو يبحث!! وتتعجّبين أيضًا من الشّيخ أنّه كيف يراجع المسائل ويراجع المسائل حتى يعيها، وكأنّه في المرّة الثّالثة وعى أنّه في هذا الباب وتذكّر، وقد كان. فهذا كلّه من عقل الشّيء، يقيّده ويضبطه ويعيه ويثبّته في قلبه. فهذه هي النّتيجة بأن تكون وقت الحاجة إليه غنيًّا به فيطابق "عمله" "قوله". فهذه هي النّتيجة الهامة: سيرشده قلبه، افعل كذا، لا تفعل كذا، امتنع عن كذا.

قال: (**يقيّده، ويضبطه، ويعيه، ويثبّته في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنيًّا، فيطابق عملهُ قولهُ وباطنهُ ظاهرهُ**) هنا ستظهر لنا مهمة حقيقيّة لنقول: "ليس كلّ طالب علم ينفع أنْ يكون مرشدًا" **لماذا؟**

(**وقال أبو الدّرداء: إنَّ مِن النّاس من يؤتى عِلمًا ولا يؤتى حكمًا**) بمعنى: أنَّه يكون حكيمًا يضع الأمور في مواضعها.

شداد ابن أوس بْن ثابت الخزرجي هذا الصّحابي المشهور، هو من الأُمراء ولّاه عمر بن الخطاب في زمانه على حمص، لكن لمَ قال عنه أبو الدّرداء: (**وإن شداد بن أوس ممّن أُوتي علمًا وحكمًا**) لأنّه اعتزلَ الولاية في زمان عثمان -رضي الله عنه- لمّا قُتِلَ عثمان. يعني: كان حكيمًا فإذا بقي في الولاية كأنّه بقي في القتال والمنازعة ودخل في الفتنة فاستفاد من كلّ النّصوص والأحاديث الدّالة على الاعتزال في الفتنة، انتفع منها واعتزل الولاية، واعتكف على ذلك. وهو مع ذلك حليمًا، فصيحًا، يُعَبِّر عن الحقائق في كلام مختصر ولذا أبو الدّرداء كان يقول عنه: "إنَّ لكلّ أمّةٍ فقيه، وفقيه هذه الأمة شدَّاد بن أوس".

الآن أين ظهرت الحكمة عنده؟ عندما استفاد من المعلومات الّتي عنده واستحضرها في الوقت المناسب، وانتفع به، واتخذ قرارًا سليمًا بناء على العلم الّذي عنده، فعرف هو أن يأخذ لنفسه قرارًا سليمًا، واستطاع أن يرشد غيره. فليس المطلوب من طالب العلم فقط أن يحفظ ويسرد ويُسَمِّع -وإن

كان هذا خير وبركة- بل لا بدّ أن يكون حكيمًا. ومن لم يُؤْتَ الحكمة فلا يرشد النّاس، **هذه هي النّتيجة، وهذه النّصيحة المبذولة دائمًا**، حتّى لا يؤذي النّاس، ليس كلّ النّاس يصلح للاستشارة حتى لو كنت طالب علم، ممكن ألّا يكون عندك حكمة، فقط عندك معلومات لكن ما عندك الحكمة.

ولذا كان الإمام أحمد حكيمًا في وقت الفتنة والخروج على ولي الأمر، لم يكن يُحَدِث في مجلسه بأحاديث الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، **لماذا؟** لأنّه حكيم، يفقه أنّ النّاس الآن لو حدّثهم بأيّ حُكم عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر سيسلّطونه على وليّ الأمر ويخرجون عليه وتشتعل الدّنيا، فهذه هي الحكمة وليس فقط الحماس مع بعض المعلومات.

الآن العقل سيستقبل المعلومة ولكن ليس شرطًا أن يصل أن يكون حكيمًا؛ لذلك قال: (**لا أقول أن يعلمها فقط قد يعلم الشّيء من لا يكون عاقلًا له بل غافلًا عنه ملغيًا له**) لا يعقله، فالعقل يربط الإنسان وهو من: "العقال" الّتي يربطون بها يدّ البعير الأماميّة حتى لا ينهض، فذلك العقل يعقلك، يمنعك.

(**وهذا مع أنَّ النّاس مُتباينون في نفس عقلهم الأشياء بين كاملٍ وناقصٍ، وفيما يعقلونه من بين قليلٍ وكثيرٍ، وجليلٍ ودقيقٍ، وغير ذلك**) ستتأثّر الآن الحكمة بأنّ نفس المعقول يكون له تفاصيل كثيرة.

قال:

ثمَّ هذه الأعضاء الثّلاثة هي أمّهات ما يُنَالُ بِهِ العلم ويدرك -أعني: العلم الّذي يمتاز به البشر عن سائر الحيوانات، دون ما يشاركها فيه من الشّمّ والذّوق واللّمس- وهُنا يُدرك به ما يحب ويكره، وما

يُمَيِّزُ به بين من يُحسِنُ إليه، وَمَن يُسيءُ إليهِ، إلى غير ذلك. {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(١).

وقَالَ: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}(٢).

وَقَالَ: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}(٣).

وَقَالَ: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً}(٤).

وَقَالَ: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}(٥).

فيما لكُلِّ عُضو من هذه الأعضاء من العمل والقوّة: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا}(٦).

ثم إنَّ العين تقصر عن القلب والأذن، وتُفَارِقُهُم في شيءٍ، وهو: أنَّها إنَّما يَرَى صَاحِبُها بها الأشياء الحاضرة والأمور الجسمانِيّة، مثل: الصّور والأشخاص.

فَأَمَّا القلبُ والأُذُنُ: فَيَعلَمُ الإنسان بهما ما غاب عنه ولا مجال للبصر فيه من الأشياء الرّوحانيّة، والمعلومات المعنويّة، ثمّ بعد ذلك يَفْتَرِقَان:

فالقلب: يعقل الأشياء بنفسه. إذا كان العلم هو غذائه وخاصِّيّته.

أمّا الأُذُنُ: فإنَّها تحمِلُ الكلام المشتمل على العلم إلي القلب، فهي بنفسها إنَّما تحمل القول والكلام، فإذا وصل ذلك إلى القلب أخذ منه ما فيه من العلم، فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، و إنّما سائر الأعضاء هي حَجَبَهٌ له، توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتَّى إنَّ من فقد شيئًا من هذه الأعضاء فإنَّه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه، فالأصمُّ لا يعلم ما في الكلام من العلم، والضّريرُ لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة، وكذلك من نظر إلى الأسماء بغير قلب أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلبٍ فإنّه لا يعقلُ شيئًا؛ فمدار الأمر على القلب، وعند هذا تستبينُ الحكمةُ في قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

١() سورة النّحل: ٧٨.

٢() سورة السّجدة: ٩.

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

٤() سورة الأحقاف: ٢٦.

٥() سورة البقرة: ٧.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٩.

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا}[1] حتى لم يذكُرْ هنا العين كما في الآيات السَّوابق؛ فإنَّ سياق الكلام هُنا في أُمُورٍ غائبةٍ، وحكمةٍ معقولةٍ من عواقب الأمور، لا مجال لنظرِ العين فيها. ومثله قوله {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ}[2].

الآن نأتي إلى الآية الّتي في سورة النّحل وهي قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ويدور حول معناها -حتى تعرف مكانة القلب- فيقول: (ثمّ هذه الأعضاء الثّلاثة هي أمّهات ما ينال به العلم ويدرك.) لأنّ الله في الآية قال: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} ثم أتت (واو) العطف الدّالة على أنّ هناك علاقة بين المعطوف والمعطوف عليه {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} فما العلاقة الآن؟ أنتم {لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} ولكن أُعطيتم أدوات العلم، ستعلمون بهذه الأدوات.

قال: (أعني: العلم الّذي يمتاز به البشر عن سائر الحيوانات) وهذا مما هو متّفق عليه أن الإنسان يكسب العلم بهذه الأدوات، (دون ما يشاركه فيه من الشّم والذوق واللّمس) عند البهائم ولكن الإنسان يمتاز بأدوات العلم: السّمع والبصر والفؤاد. (وهُنا يُدرك به ما يحب ويكره، ويميّز به بين من يحسن إليه ومن يسيء إليه إلى غير ذلك) ثمّ أتى بالآيات الدّالة على هذه الأدوات: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}

{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}

{وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً}

{خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

وقال: (فيما لكُلِّ عُضو من هذه الأعضاء من العمل والقوّة {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ} هذه الآية تقول لك ما هو عمل كلّ عضو من هذه الأعضاء:

{لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا} إذًا القلب يفقه.

{وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا} إذًا الأعين تبصر.

{وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا} إذًا الأذان تسمع.

---

(1) سورة الحجّ: ٤٦.

(2) سورة الفرقان: ٤٤.

(**ثمّ إنّ العين تقصر عن القلب والأذن**) إذًا يبدأ يفاضل بينهم في المراتب (**وتُفَارِقُهُم في شيءٍ، وهو: أنَّها إنَّما يرى صاحبها بها الأشياء الحاضرة والأمور الجسمانِيّة، مثل: الصّور والأشخاص.**) بمعنى: أنّ العين قاصرة عن القلب والأذن لأنّها إذا كانت مغلقة وكانت الأشياء غير مجَسّمة أمامها فلن ترى، إذًا هي أداة لكنّها تقصر عن القلب والأذن.

(**فأمّا القلب والأذن: فيعلم الإنسان بهما ما غاب عنه**) **لماذا؟** لأنّ الأذن تسمع الأخبار، فسواء كانت هذه الأخبار تفسيرًا لشيء صار أمامه أو خبرًا عن شيء لم يدركه لكنّه سمعه، فتكاد الأذن من قوّة القلب أن تُمثِّل هذا الشّيء أمامه، من قوّة الأذن حين يسمع، يستطيع أن يتخيّل الصّورة بل لا يحتاج أن يتخيّل الصّورة مثال:

حين تسمعين عن أبي بكر الصّديق، وأنتِ لله الحمد من أهل السّنة تحبين هذا الرّجل الّذي أثنى عليه الله في التّوراة والإنجيل والقرآن وهو صاحب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فتحبّينه من أجل الأخبار الّتي سمعتِها ولا تحتاجين لرؤيته أبدًا ولا يمرّ في خاطرك الكلام عن رؤيته، فبهذا تفهمين أنَّ الأذن يعلم بها الإنسان ما غاب عنه (**ولا مجال للبصر فيه من الأشياء الرّوحانيّة**)يعني: الغيبيّات (**والمعلومات المعنويّة**) أي: الّتي لا تدرك بالحواس.

الآن سيكوّن علاقة بين القلب والأذن، يقول: (**ثمّ بعد ذلك يَفْتَرِقَان: القلب والأذن**) أخرج أوّلًا العين، ثمّ ذكر الشّراكة بين القلب والأذن.

نري الآن، (**فالقلب: يعقل الأشياء بنفسه. إذا كان العلم هو غذائه وخاصِّيّته.**)

(**أما الأُذُنُ: فإنَّها تحمِلُ الكلام المشتمل على العلم إلي القلب**) يعني: لا تحلّله، فقط كأنّها تعطيك النّتائج، مثلًا، بالمناسبة الّتي نعيشها، عندما يقولون لكِ: عدد الإصابات ٦٨، القلب يقول: كثير أو قليل، لكن الأذن فقط تسمع الخبر، وقد يكون القلب لا يعلم هل كثير أم قليل، فيسأل: كم كانت الأعداد أمس؟ هل تضاعفت الإصابات وبأيّ كميّة؟ وسيدرك وقتها الحكم: قليل أم كثير. فالأذن مثل موجة الرّاديو تُدخل المعلومات، والقلب يحلّلها.

(**فهي بنفسها إنّما تحمل القول والكلام، فإذا وصل ذلك إلى القلب أخذ منه ما فيه من العلم.**)

(**فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، و إنّما سائر الأعضاء هي حَجَبَةٌ له**) أي: حُجّاب على باب الملك، فحين يأذن لهم بالدّخول تدخل إليه المعلومات؛ فيحلّل.

(**توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتَّى إنَّ مَن فقد شيئًا من هذه الأعضاء فإنَّه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه.**) وضرب لنا مثالًا على الأصمّ، وضرب مثالًا على الضّرير، يوضّح كيف أنّ الإنسان يفقد جزء من العلم نتيجة فقدان الأداة.

يقول: (**وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلبٍ**) هو الآن سيتكلّم عن العاهة المعنويّة.

ما هي العاهة المعنويّة؟ أن ينظر الشّخص للأشياء بغير قلب.

(**أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب**) أي: توجد أداة، توجد موجات الرّاديو، لكن ما يوجد شيء يستقبلها ويترجمها. (**فإنه لا يعقل شيئا**) كون الأمر على القلب.

مثلًا: تقرأ سورة الملك والمفترض أن تقف طويلًا متأملًا في قوله تعالى: {**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ* أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا**}[1] هذه آيات تحتاج إلي قلب، من أجل أن تقول: لا يا ربّ لا نأمن!! ننام غير آمنين غدًا ماذا يكون!! وتسمعين مع ظهور كورونا ظهرت حالات إنفلونزا الطّيور، يعني وباء يغذّيه وباء آخر، أكيد هذا من غضب الله، فهنا عند قراءتك لسورة الملك لا بدّ أن تعقلي أنّه ممنوع أن تكوني آمنة وليس خوفك من المرض، ولكن خوفك من الله، كيف تأمن من في السّماء؟ الآن هربنا لبيوتنا وكان الحجر هو الحل، الآن هناك ظهر شيء لم يكن له سابقة، وقد يكون منَّا من بلغ السّتين في عمره ولم يمرّ بخاطره أنّ هذا معنى الوباء والجائحة والطّاعون، ولكن قدّر الله ورأيناه، إذا حبسنا أنفسنا في بيوتنا فهو الحلّ لمثل هذه الجوائح، ولكن حين يخسف بنا الأرض-نعوذ بالله من هذه الحالة- ماذا سيكون حالنا؟؟ فهنا الهرب من البيوت هو الحلّ، وإذا أرسل حاصبًا على أهل الأرض من السّماء ماذا سيكون الحلّ؟ فلا تركّز تفكيرك على نوع معيّن من البلاء الّذي ابتلانا الله به، أنت استدفع غضب الله لكيلا تتنوّع عليك البلاءات وقد تنوّعت، فإخواننا نسأل الله أن يرفع عنهم في بلاد الإسلام مع هذه الجائحة نزلت عليهم أمطار وسالت عليهم سيول وغرقت بعض بيوتهم وانقطعت عنهم الكهرباء وانقطع عنهم الماء، أي: قد تحصل أمور أخرى، فلا تكن عينك فقط على الجائحة.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله

نهاية اللّقاء الأوّل

---

[1] سورة الملك: ١٦-١٧.

اللّقاء الثّاني

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن ييسّر لنا هذه الرّسالة والانتفاع منها، اللّهم آمين.

نحن لا زلنَّا في قراءة **رِسَالَةٌ فِي القَلْب و أَنَّهُ خُلِقَ لِيُعْلَم بِهِ الحَقُّ ويُسْتَعمَلَ فِيْمَا خُلِقَ لَهُ.**

قال الإمام ابن تيمية:

ويتبيّن حقيقة الأمر في قوله: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[1] فإنَّ من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين:

* **إما رجلٌ رأى الحقَّ بنفسه، فقَبِلَهُ و اتَّبَعَه، ولم يحتج إلى من يدعُوهُ إليه، فذلك صاحب القلب.**
* **أو رجلٌ لم يعقِلَه بنفسه، بل هو محتاجٌ إلى مَنَ يُعَلِّمُهُ وَيبَيِّنهُ لَهُ وَيَعِظُهُ وَيُؤَدِّبُهُ، فهذا أصغى، فـ: {أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} أيْ: حاضرُ القَلبِ لَيسَ بغَائِبِهِ.**

كَما قال مُجَاهِدٌ: "أُوتِي العِلمَ وَكَانَ لَهُ ذِكرَى".

ويَتَبَيَّنُ قَولُهُ: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}[2].

وقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}[3].

هذا المعنى الآن مبنيّ على المعنى السّابق؛ لذلك لا بدّ أن نعود للمعنى السّابق:

كان في المعنى السّابق يبيّن كيف تقدّم القلب على العين وعلى الأذن، وبيّن بعد ذلك أنَّ صاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، والأذن والعين (حَجَبة) وبيّن بعد ذلك أنَّ من يفقد العين ويفقد الأذن يفقد جزء من هذا العلم.

ثمّ قال في نهاية هذا الكلام: (**فإنّه لا يعقل شيئًا**) إذا استمع بأذنه ولم يفهم قلبه، وإذا رأى بعينه ولم يفهم قلبه، فإنَّه لا يعقل شيئًا، فمدار الأمر على القلب.

---

(1) سورة ق: ٣٧.

(2) سورة يونس: ٤٢-٤٣.

(3) سورة الأنعام: ٢٥.

(وعند هذا تستبين الحكمة في قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا}) حتى لم يُذكر هنا العين كما في الآيات السّوابق (فإنَّ سياق الكلام هُنا في أُمورٍ غائبةٍ، وحكمةٍ معقولةٍ من عواقب الأمور، لا مجال لنظرِ العين فيها) هنا يقصد أنّه لو استبان للإنسان من التّاريخ "الحكمة" فهو يحتاج إلى سمع وقلب، لا يحتاج إلى بصر، فليس من اللّازم أن يرى الأحداث بعينه؛ ولذلك قيل: ({أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا}) فيكفي أن تكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها لأجل أنْ يعقلوا الأمر؛ والّذي استفدته ممّا مرَّ سابقًا أيضًا سيكفي، فلا مجال لنظر العين هنا، وبمناسبة ما نمرّ به، حين نأتي نقول: مثل هذا الوباء حصل في عصر الصّحابة أو مثل هذا الوباء كانت الحمّى الإسبانية قبل ١٠٠ عام، هذا الخبر لا يحتاج إدراكه إلّا أنّ تسمعي الخبر، إذا سمعت الخبر لا تحتاج أن تنظر إلى جُثث الموتى-مثلًا-، بمجرّد سماعك الخبر ستعقله إذا كان عندك قلب، إذًا هناك أداتين نحتاجها أعلى حاجة حتى يحصل العقل: "السّمع والقلب" وطبعًا العين ضروريّة لكنّها أقلّ ضرورة من السّمع.

(ومثله قوله: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ}) أصبح المنْفي عن هؤلاء: "السّمع والعقل" لكن لم يُنفَ عنهم البصر؛ لنفس الأمر، أنَّ السّمع سيجلب لهم الخبر، والقلب سيعقله، فتظهر الحكمة من المعقول.

قال: (وتتبيّن حقيقة الأمر) ستتبيّن حقيقة أنّنا نحتاج السّمع والقلب (في قوله: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ}) لكن لمن؟ ({لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} هذا الوصف الأوّل، في الآيات السّابقة قال: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ} ماذا كان حالهم؟ {أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا} هؤلاء الّذين كانوا أشدْ من قريش بطشًا، الله -عزّ وجلّ- أهلكهم، أنت ماذا تحتاج لتستفيد من إهلاكهم؟ تحتاج أن تسمع أخبارهم، ثمّ تحلّلها بقلبك، بعد ذلك تخرج بالنّتيجة.

مثلًا الفراعنة، هل تحتاج أن ترى الفراعنة؟ لا، حتى ليس شرطًا أن ترى آثارهم، هذا شيء زائد، لكن الأصل أن تسمع أخبارهم؛ لأنّ ليس كلّ النّاس كان عندهم ما يصلون به إلى صور هذه الآثار الّتي كانت موجودة، الّتي يمكنك أن تراها الآن بسبب عدم اختراع التّصوير، فكان يكتب الرّحالة، أنّهم وجدوا بناءً عظيمًا، وأنّ له هذه الصّفات، الآن أنت سمعت الأخبار بأذنك وعرفت الصّفات لهذه الحضارة، وعرفت أنّها بلغت أوجها وتركت هذه الآثار، وبعد ذلك انتهت، فكّر الآن بعد ذلك، لا بدّ أن يكون لديك قلب لتستفيد من هذه الأخبار، لا بدّ أن يكون عندك قلب. ماذا سيفعل القلب الآن؟ سيعقل ويقول: مهما بلغت الحضارات ومهما وصلت أحوال النّاس، ومهما تعاظموا في الدّنيا، ومهما تزخرفت لهم وتزيّنت لهم

فالنّتيجة كما قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا}[1] فهو هذا، نحن الآن عندما نحكي بعد ١٠ سنين هذه الحكايات -إذا أمدّ الله أعمارنا- لأحفادنا الّذين عمرهم الآن ٥ سنين، عندما يصبحون شبابًا سيكون هذا ضعيفًا في ذاكرتهم غير واضح، وسيكون كلامنا هذا من تجربة مررنا بها، هم لم يسمعوا ولم يروا، فالمفترض أن يسمعوا ويعقلوا.

ومثله قصّة قارون، قارون خبر مسموع سمعناه بآذاننا، وبالقلب حصل التّعقل، ومثله ما قيل في قصّة فرعون من تعقّل، وفي هذا كلّه قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ} ، {ذَٰلِكَ} اسم إشارة عائد علي آية: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا} الّتي تنقسم إلى قسمين:

- قسم فيه الخبر: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا} من قرون، هؤلاء الّذين أهلكهم الله كانوا أشدَّ من قريش بطشًا، أشدّ من القوم الّذين تراهم الآن.

- قسم فيه النّتيجة: {هَلْ مِن مَّحِيصٍ} هل وجدوا لأنفسهم مهربًا؟ ما وجدوا مهربًا، بل كان الله بهم محيطًا، كان بطش الله بهم واقعًا، كانوا في قبضة الله، هذا هو التّعقل، حين تعرف تاريخهم وتعرف أين وصلوا في القوّة ومع ذلك لم يستطيعوا أن يهربوا، فمثله الآن حين تمرّ الأيام ونحكي لمن بعدنا ونقول: وصلوا إلى الفضاء واخترعوا آلة تشبه الإنسان ثمّ أتاهم شيئًا لا يرى بالعين أعجزهم! أليسوا كلّ فترة يتفاخرون علينا بما لا يرى بالعين، واخترعوا مقياس "النانو متر" وقالوا: هذا المقياس يجعلك تفتّت الذّرة وتستطيع من قطعة سنتيمتر أن تصنع جاكيت تلبسه في الحرّ وفي البرد، أليس هذا ما سمعناه! ثمّ جاءهم ما يخيفهم وهو لا يُرى بالعين ومع ذلك أصاب النّاس كأنّه أصاب الحياة كلّها بالشّلل وهو أين هو؟ أين آثاره؟؟! وكأنّه يقال: أين الإلحاد! لو ما أؤمن إلّا بما أرى فأين هذا الفيروس! ولكن من الّذي ينتفع بهذا الكلام؟ {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ} كلّ هذه الأخبار من الّذي سيتعقّلها؟ هذه الآية لا بدّ أن نقف أمامها لأنّها وضعت مرتبتين لمن ينتفع بها:

- المرتبة الأولى: أنّ هذا الكلام {لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ}.

- المرتبة الثّانية: أنّ هذا الكلام سينفع من {أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}.

المتصوّر أنّ الإنسان يُلقي السّمع وهو شهيد وبعدها يكون له قلب. فابن تيمية يجيب الجواب مختصرًا بدون الدّخول في أيّ تفاصيل، يقول لك: **(فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم)** كما في هذه الآية {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ} هذا الّذي يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم ليس فقط معلومات وقد أخبرنا من

[1] سورة يونس: ٢٤.

البداية بهذا الأمر، حين قال: (**فصلاح القلب وحقُّهُ والَّذي خُلِقَ من أجله، هو أن يعقل الأشياء، لا أقول أن يعلمها فقط، فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلًا له، بل غافلًا عنه مُلْغِيًا له.**)

ثم يبيّن لنا ما معنى العقل، قال: (**يقيِّده، يضْبُطه، ويعيه ويُثبّته في قلبه، فيكون وقت الحاجة إليه غنيًا**) بحيث أنّه يستطيع أن يستحضره ويتصرّف به. فهذا هو **الذّكاء الإيمانيّ**.

وهناك فرق بين:

- **الذّكاء الإيمانيّ**: وهو الّذي يسبّب للإنسان أن يكون زاكيًا بعد ذلك.
- **والذّكاء المعرفيّ**: وهو أن يكون عند الإنسان معلومات، مثال: يعرف يحسب، يعرف يضرب، يعرف يقسم، ولكن لم يؤت الحكمة.

فالزّاكي الآن يكون ذكيّ، يفهم المسائل، لا بدّ أن يكون ذكيّ لكي يصل للحكمة. لكنه ممكن أن يصل لتزكية نفسه بدون أن يكون ذكيّ جدًا. لكن لكي يصل للحكمة يجب أن يجمع بين الأمرين، بين:

الذّكاء: الّذي من خلاله يستطيع أن يستوعب الأمور.

وبين أن يفهمها فهمًا جيّدًا ويعيها ويضعها في المواقف؛ فيلزمه هذا الذّكاء بالأمور، أن يتصرّف بهذه الصّورة ولا يتصرّف بهذه الصّورة.

قال: (**وذلك هو الّذي أوتي الحكمة**) **من الّذي أوتي الحكمة**؟ هو من لديه ذكاء إيمانيّ، لديه القدرة على تقييد العلم، على ضبط العلم، عنده قدرة على الوعي بالعلم، وتثبيته، فيكون بالعلم غنيًّا، فلا يتعثّر، وحتى لو وقع يقوم مباشرةً ويعرف لماذا وقع ويعرف ما هو الخلل الّذي وقع منه.

وهناك آخر أقل منه درجة، قال: (**فإنَّ من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين:**

المنزلة الأولى: (**إمَّا رجلٌ رأى الحقَّ بنفسه فقَبِلَهُ فاتَّبَعَه، ولم يحتج إلى من يدعُوهُ إليه**) وهذا هو الأشدّ ذكاء، هو بنفسه سمع الأخبار فقال: "كلّ النّاس في قبضة الله إذًا لا يوجد شافٍ إلّا الله" هو بنفسه يستخرج النّتائج (**فذلك صاحب القلب**) هذا صاحب الدّرجة العليا {**لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ**}.

المنزلة الثّانية: أيضا عنده حكمة وينتفع بالعلم (**رجلٌ لم يعقِلَه بنفسه، بل هو محتاجٌ إلى مَنَ يُعَلّمُهُ وَيبَيِّنَهُ لَهُ وَيَعِظُهُ وَيُؤَدّبُهُ، فهذا أصغى**) للمعلّم، لكن لم يعقل العلم بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلِّمه ويبيِّنه له ويعظه ويؤدّبه. وحين يؤدّبه أحد يتأدّب.

الآن ستقول: "إذًا كلّ النّاس من النّوع الثّاني"!! لا ليس كلّ النّاس من النّوع الثّاني، كثير من النّاس عُلِّمَ علمًا ثمّ يحصل لهم موقف على قدر المثال الّذي ضربته لهم فيتصرّفوا في نطاقه! لكن إذا عرض لهم موقف آخر يشبه له، المفترض أن يرتقوا فهمًا ويتصرّفون، لكنّك تجدهم لا يحسنون صنعًا! وهناك أيضًا من تُبتَلى بهم، من يظنّون أنفسهم فاهمين، وكلّما كلّمتهم اعترضوا أو قدَّموا فهومهم أو عارضوا الحقّ. فالنّاس الّذين يعرض عليهم العلم أُناسٌ كثر مختلفين وانتفاعك بالعلم على قدر هاتان الصّفتان:

- {لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} وهنا الكلام عن الأكابر من الأمّة أمثال: (الإمام أحمد - الشّافعيّ - الإمام مالك - أبو حنيفة - البخاريّ ومسلم) سؤال: هؤلاء ألم يكن لهم شيوخ وعلماء؟ بالطّبع كان لهم شيوخ وعلماء.

لكن حين تصف رحلة البخاريّ هذا الفطين الذّكي، الّذي قد وُهِبَ له العلم هبةً. تتكلّم عن طفل عمره ثمانية سنين، عشر سنين، اثني عشر سنة، وتتكلّم عن هذه المراحل العمرية كان فيها طالب، وعندما صار عمره ستة عشر عامًا بدأ يصير هو الشّيخ! فأنت تتكلّم عن شخص له قلب عرف به الحقّ وخرجت من ورائه النّتائج.

والصّفة الثّانية الممدوحة أيضًا:

- {أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} أي: هو محتاج لمن يعلّمه ويعظه ويؤدّبه، أصغى وهو حاضر القلب ليس بغائبٍ لذلك استفاد؛ ففي النّهاية لا بدّ من القلب، إمّا القلب فقط يحتاج أن تصله الأخبار، أو يحتاج لأحد يفّهمه الأخبار ويأتيه بالنّتائج.

(**كما قال مجاهد: "أُوتِيَ العِلمَ وَكَانَ لَهُ ذِكرَى**") أي أنّ الله يرزقه العلم وهذا العلم ليس فقط معلومات يتكلّم بها، وإنّما يتذّكر ويُفكّر وينتفع بها.

سيأتي الآن الكلام عن ضد هؤلاء، قال:

ويَتَبَيَّنُ قَولُه –مجاهد-: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}[1] هذه الآية من سورة يونس من الآيات المهمّة جدًّا في فهم هذه الحالة، وهي من السّور الّتي أُستعرض فيها صور واضحة لعلل أهل الكفر وحججهم على الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- سواء كانت في نفس دعوته للتّوحيد أو كانت في رسالته أو في القرآن فهم أتَوْا إلى المحاور الثّلاثة: "المُرسِل، المُرسَل، والمُرسَل به" وألقوا بالشّبه عليها ففي سورة يونس جاء الرّد على كلّ هذه الأمور.

() سورة يونس: ٤٢-٤٣.

الشّاهد: أنّ الله -عزّ وجلّ- بعد أن بيّن لهم كثير من الأمور، بيّن أنّ هذا لن ينفعهم إذا لم يكن عندهم قلب، **لكن كيف قال لنا هذا المعنى؟**

في قوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} هم يستمعون فيقول الله: {أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ} لكنّهم ليسوا صمًّا! لا، هم صمّ من جهة: {وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} بمعنى أنّ الإنسان إذا لم يكن لديه عقل يتعقّل به فهو بمنزلة الأصمّ.

{وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} المقصود أنّهم لو نظروا إلى هديه -صلّى الله عليه وسلّم- وسمته وحاله كيف كان قبل البعثة مع أوصاف الكمال، ثم بُعث -صلّى الله عليه وسلّم- على ما كان له من أوصاف كمال كان المفترض أن يهتدوا به.

الآن في سورة يونس الطّعن جاء في ثلاثة أمور:

١- في الله الّذي أرسل الرّسالة.

٢- في الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

٣- في القرآن الّذي هو رسالة الرّسول.

هل هم لا يسمعون؟ بل يسمعون، لكن ليس لهم قلب يجعل السّمع له قيمة، فهم في منزلة الأصمّ.

هل هم لا ينظرون؟ بل ينظرون، نظروا لسيرة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- هذا الكلام عن ناس رأوا النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وكلّ من قرأ سيرته كمن رآه، لكنّهم في نفس الوقت في منزلة العُمي، قال تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ} هل تستطيع أن تهدي العمي!؟ {وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} بمعني: أنّهم حتى لو كانوا في ظاهرهم ينظرون إليك لكن قلوبهم معطّلة فهذا النّظر لا قيمة له.

الآن نحتاج شاهدًا على ذلك: أبناؤنا -للأسف الشّديد- وموقفهم من الأجهزة عندما تكون معهم وهم تحت سحرها عندما تكلّمينهم كأنّك تكلّمين أصمّ، ينظرون إليك وكأنّهم عُمي، لا يرون شيئًا، لا يستطيعون أن يفسّروا أيّ شيء، وإذا ناديتهم لا يسمعون!

وفي الحقيقة مثل هذه الأمور لو حصلت من إنسان عاقل يكون هذا نوع من النّقص في عقله؛ لأنّك تكلّمينه ولا يفهم ماذا تقولين، أو تُفهّميه ولا يستجيب بالاستجابة المناسبة، هنا تكتشفين بعد ذلك أن هذا فيه نقص!

لكن هؤلاء لا يوجد بهم نقص، هؤلاء قلوبهم مشغولة، فالأدوات ظهرت كأنّها ناقصة، انشغل القلب فجعلتهم الأدوات في حكم النّاقصين، يعني: كأنّ عندهم سمع وبصر لكن بلا عقل، يتصرّفون تصرّفات وينفعلون انفعالات لا تدلّ على أنّهم عقلاء!

قال: (**وقوله:** {وَمِنۡهُم مَن يَستَمِعُ إِلَيكَ وَجَعَلنا عَلى قُلوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفقَهوهُ وَفي آذانِهِم وَقرًا})

{وَمِنۡهُم مَن يَستَمِعُ إِلَيكَ} هناك استماع، ولكن لا قلب يعي ولا أُذن تسمع على الحقيقة؛ إذًا هؤلاء يستمعون إلى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولكن بينهم وبين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حاجزًا مكانه على قلوبهم، كأنّ قلوبهم في شيء مغلّف {أكنّة} والنّتيجة أنّهم لا يفقهون، وأيضًا {وَفي آذانِهِم وَقرًا} يعني: بصورة الشّخص الّذي في أذنه صمم.

- تبيّن لنا بوضوح أنّ الإنسان يحتاج كي يصل إلى الحكمة إلى: "قلب وسمع".
- ووقت السّمع يحتاج إلى "سمع يُلقى والقلب حاضر".

إذًا آية سورة ق: تتكلّم عن مرتبتين:

المرتبة الأعلى من الكمال: من كان له قلب حاضر ولا يحتاج أحدًا يُفهّمه.

المرتبة الأدنى من الكمال: يكون له قلب حاضر، ولكن القلب هذا بنفسه لا يستطيع أن يصل للحقّ ولكنّه لا بدّ أن يسمع من يرشده للحق، ونسأل الله أن يجعلنا ذاك الرّجل.

قال:

ثمّ إذا كان حقّ القلب أن يعلم الحقّ فإنّ الله هو الحقّ المبين {فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَماذا بَعدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ}[1].

إذًا كلّ هذا أوصلنا إلى نتيجة: فالعين تبصر، والأذن تسمع، واليد تبطش، والقدم تمشي، والقلب يعرف الحق، وهذه وظيفته.

طيب إذا كان هذا حق القلب علينا، فما هو الحق المطلق الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ الله هو الحقّ المبين، وكلّ أمر فيه خبر من الله أو علم من الله سيدخل في نفس الحكم وهذا سيتبيّن إن شاء الله بعد ذلك.

---

(1) سورة يونس: ٣٢.

لذلك سورة يونس مناسبة جدًا لهذه المعاني، فهذه الآية أيضًا في سورة يونس، وهذه الآية الّتي نستشهد بها دائمًا على تفسير "**لا إله إلّا الله**" وأنّها بمعنى: لا معبود بحقّ إلّا الله، {**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ**} يعني: هو الّذي يستحقّ أن يكون إلهكم، فإذا لم تعلموا أنَّ هذا هو الحقّ، فكلّ شيء بعد هذا الحقّ "ضلال".

فكِلَا الشّقين في الآية خطير جدًا، لأنّ الشّق الأوّل يفسّر لنا معنى "لا إله إلّا الله"، والشّق الثّاني يقول لك: أي شيء ستفسّره في الحياة أو تتعامل معه في الحياة؛ ليس مبنيًا على علمك أنّ الله هو الحقّ فسيكون ضلالًا.

مثال:

- إذا أردت أن تفسّر نشأة الكون بعيدًا عن الله سيكون ضلالًا.
- وإذا أردت أن تفسّر وظيفة الإنسان في الحياة بعيدًا عن الله سيكون ضلالًا.
- إذا أردت أن تفسّر السّحاب في السّماء بعيدًا عن الله سيكون ضلالًا.
- إذا أردت أن تفسّر خروج الزّرع من الأرض بعيدًا عن الله سيكون ضلالًا.
- إذا أردت أن تفسّر العلاقة بين المرأة والرّجل بعيدًا عن الله سيكون ضلالًا.
- إذا أردت أن تفسّر العلاقة بين الأبناء ووالديهم بعيدًا عن الله سيكون ضلالًا.

وانظر إلى كلّ ما يتحدّثون عنه في التّربية وانظر إلى حقوق الطّفل وحقوق المراهق، وحقوق الإنسان وكل هذا من جهة ومن جهة أخرى البرامج الّتي تتكلّم عن تهذيب المراهق إذا اعتدى على والديه! ومن الّذي لم يجعل للوالدين سلطة على الأولاد بداية؟! أرأيتم كيف يخرقون السّفينة ثم يرقّعونها؟ وهذا أسلوبهم.

فأيّ أحد -بلا استثناء- يتكلّم في نظريّة تربويّة ولم يعتمد على أنّ هذا الابن "عبدٌ لله" وأنّ وظيفته عبادة الله؛ فهو باطلٌ ضلال، ولذلك نحن نقول في مثل هذه الأمور كلّها: لا تقف في موقف وسط، خطأ أن تقف في موقف وسط بين الحقّ والباطل، وبين الحقّ والضّلال، واسمع ماذا يقول ربّنا: {**فَماذا بَعدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ**} معناها لا يوجد شيء في الوسط، فإمّا حقّ وإمّا ضلال، الحقّ نفسه قد يأتي أحد به كلّه وقد يأتي أحد بنصفه.

هنا نقول له: افهم أَصل المسألة: أي كلام يُقال إذا كان مبنيًا على معرفة الله الحقّ سيكون حقًا ما دمت تسير في طريق معرفة الله، وتسير على الأدلّة ستكون على حقّ، وقد ذكرت لكم أنّ الشّيخ ابن عثيمين دائمًا يقول عن من يخالفنا الرّأي في المسائل الفقهيّة في شرحه للزّاد: "إنّ من يخالفنا في الحكم في مسألة فقهيّة لا يعتبر مخالفًا ما دام يعتمد على دليل" **لماذا لا يعد مخالفًا؟** لأنّنا نعتبر في خانة واحدة وهي: **تعظيم الكتاب وتعظيم السّنّة وتعظيم الآثار الّتي ذكرت عن السّلف**، لكنّني فهمت شيئًا وهو فهم شيئًا آخر، فهنا توجد مساحة، فلا تخلطوا الأمور ببعضها.

مثال:

- بذرة موضوعة في أرض صالحة للزّراعة، وبذرة موضوعة في أرض غير صالحة للزّراعة، من بداية الموضوع الّتي في أرض غير صالحة للزّراعة إذا سقيتها واعتنيت بها **هل ستنمو؟** لا، فهذا هو الباطل.

والأرض الصالحة للزّراعة سأسقيها وأهتمّ بها وتنبت وقد تأتي بهذه الثّمرة أو تأتي بهذه الثمرة أو تأتي بهذه الثّمرة، ثمرات كثيرة.

- قارني بين صحيح البخاريّ وصحيح مسلم، أليس جميعهم على ما صحّ من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ وهذا له منهج وطريق، وهذا له منهج وطريق، وكلّهم يعتبرون متّفقين.
- قارني بين سنن التّرمذيّ وسنن أبي داوود، أليسوا مرتّبين على أبواب الفقه؟ بلى، وهذا له طريق ونتائج وفهم، وهذا له طريق ونتائج وفهم.

فهذه هي الثّمار لكنّها ثمار في أرض الحقّ، تأتي مختلفة ولا يوجد مشكلة، لكن الأخرى سامّة؛ ولذا الله -عزّ وجلّ- شبّه هذا الحقّ في قلب المؤمن بالشّجرة، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُها ثابِتٌ وَفَرعُها فِي السَّماءِ * تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بِإِذنِ رَبِّها}[1] لو كانت هذه الشّجرة -كما ذكر المفسّرين- هي النّخلة، فأنتم تعرفون أنّ النّخلة كلّ ما تخرجه طيّب لكنّها لا تخرج نوعًا واحدًا، وإنّما أنواع: التّمر الفاخر، الأقل، وكذلك تختلف في نوع التّمر، لكن الشّجرة الثّانية: {خَبيثَةٍ اجتُثَّت مِن فَوقِ الأَرضِ ما لَها مِن قَرارٍ}[2] وهنا شيء مهمّ جدًا لا بدّ أن تفهمه من أجل أن تؤسّس تفكيرك: **أنّ هناك حقّ وهناك ضلال وليس هناك أمروسط**، إمّا شجرة طيبة وامّا شجرة خبيثة.

مثال:

[1] سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥.

[2] سورة إبراهيم: ٢٦.

كتاب يقدّم رسالة عن التّربية الإسلامية وأوّل ما يبدأ في الكلام عن التّربية يذكر العالم الفلاني الفرنسيّ، والعالم الفلاني! أنت أخطأت من البداية! والسّؤال المتكرّر علينا دائمًا: ألا نستفيد من تجارب الأخرين؟ بل هناك استفادة من تجارب الأخرين، لكن لها خصوصيتها بعد ما تنشأ وتكبر وتقوى وتفهم وتعرف كلّ الحقّ، حينها يصبحون بالنّسبة لك بمثابة العبرة وللعلم أنّهم في كلّ الكلام الّذي تكلّموا فيه عن النّفس الإنسانيّة وعن علومها لم ينجحوا إلّا في رصد الأمور، لكن أوّل ما يقدّمون الحلول، نقول: {فَماذا بَعدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ} وهم في كلّ حال بهذه المثابة.

إذًا لا بدّ أن يعرف قلبك أنّ ربّنا الحقّ وما يكون بعد هذا الحقّ إلّا الضّلال؛ ومن أجل ذلك كلّ شيء ستنشئه في نفسك سيبدأ بالحقّ، وبعد أن يثبت ويعلو ذلك الحقّ ممكن أن تستفيد من غيرك، لكن وفي الأصل أنت تفرّق أنّ هناك حقًا وأنّ هناك باطلًا.

قال:

ثمَّ إذ كان كل ما يقع عليه لمحةُ ناظرٍ، أو يَجُولُ في لَفتَةِ خَاطَرٍ، فاللهُ ربّه ومُنْشِئُهُ، وفَاطرُهُ ومُبدئُهُ، لا يحيط علمًا إلّا بما هو من آياتِهِ البَيِّنَةِ في أَرضِهِ وسمائه، وأَصْدَقُ كلمةٍ قالها الشَّاعر، كَلِمَةُ لبَيدٍ:

أَلا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

أي: ما من شيءٍ مِنَ الأشيَاء إِذَا نَظَرتَ إِلَيهِ مِن جِهَةِ نَفسِهِ إِلَّا وَجَدتَّهُ إِلَى العَدَمِ، وَمَا هُوَ فَقِيرٌ إِلَى الحَيِّ القَيُّومِ، فإِذَا نَظَرتَ إِلَيهِ وَقَد تَولَّتهُ يَدُ العِنَايَةِ بِتَقدِيرِ مَن أَعطَى كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى، رَأَيتَهُ حينئذٍ موجُودًا مَكسُوًّ حُلَلَ الفَضلِ وَالإِحسَانِ، فَقَد استَبانَ أَنَّ القَلبَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذِكرِ الله سُبحَانَهُ؛ ولِذَلِكَ قَالَ بَعضُ الحُكَمَاءِ المُتَقَدِّمِينَ مِن أَهلِ الشَّامِ -أَظُنُّهُ سُلَيمَانَ الخَوَّاصَ رحمه الله- قال: "الذِّكرُ لِلقَلبِ بِمَنزِلَةِ الغِذَاءِ لِلجَسَدِ، فَكَمَا لَا يَجِدُ الجَسَدُ لَذَّة الطَّعَامِ مَعَ السَّقَمِ، فَكَذَلِك القَلبُ لا يَجِدُ حَلَاوَةَ الذِّكرِ مَعَ حُبِّ الدِّنيَا". أَو كَمَا قال.

فَإِذَا كَانَ القَلبُ مَشغُولًا بِاللهِ، عَاقِلًا لِلحَقِّ، مُتَفَكِّرًا فِي العِلمِ، فَقَد وُضِعَ فِي مَوضِعِهِ، كَمَا أَنَّ العَينَ إِذَا صُرِفَت إِلَى النَّظَرِ فِي الأَشيَاءِ فَقَد وُضِعَتْ فِي مَوضِعِهَا.

نحن لا زلنا عند آية يونس، وأورد شاهدًا كلام لبيد قال: (**وأَصْدَقُ كلمةٍ قالها الشَّاعر كَلِمَةُ لبَيدٍ: "أَلا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ**) وهذا معناه: أيّ شيء انظر له من جهة نفسه ستكون النّتيجة أنّه عدم وأنّه لم يتمكّن إلّا بتمكين الله له، وأن لاحول ولا قوة للإنسان إلّا بالله.

(فإِذَا نَظَرتَ إِلَيهِ وَقَد تَولَّتهُ يَدُ العِنَايَةِ بِتَقدِيرِ مَن أَعطَى كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى، رَأَيتَهُ حِينَئِذٍ مَوجُودًا مَكسُوًّ حُلَلَ الفَضلِ وَالإِحسَانِ) وهذا مثل الكلام الأوّل.

مثال:

إذا نظرت للنّبات عرفت أنّ الله الحقّ وأيّ شيء غيره باطل، وإذا نظرت إلى السّماء، وإذا نظرت...إلخ.

سنبدأ الآن كلامًا جديدًا:

يقول: **(فَقَد استَبَانَ أَنَّ القَلبَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذِكرِ الله سُبحَانَهُ)** الآن القلب **ما هي وظيفته؟** العين تتّجه للمبصرات فتبصر، الأذن تتّجه للمسموعات فتسمع، القلب يتّجه إلى جهة المعقولات فيعقل عن الله، فإذًا معنى ذلك أنّ وظيفة القلب أن يذكر الله -عزّ وجلّ- وسيتبيّن الآن كيف يكون ذكر الله.

قال: **(وَلِذَلِكَ قَالَ بَعضُ الحُكَمَاءِ المُتَقَدِّمِينَ مِن أَهلِ الشَّامِ -أَظُنَّهُ سُلَيمَانَ الخَوَّاصَ رحمه الله- قال: "الذِّكرُ لِلقَلبِ بِمَنزِلَةِ الغِذَاءِ لِلجَسَدِ، فَكَمَا لَا يَجِدُ الجَسَدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ مَعَ السَّقَمِ، فَكَذَلِك القَلبُ لا يَجِدُ حَلَاوَةَ الذِّكرِ مَعَ حُبِّ الدّنيَا")** البدن يصبح سقيمًا مع الأمراض فلا يجد طعمًا للطّعام، والقلب مع حُبّ الدُّنيا يصبح مريضًا فلا يجد حلاوة الذّكر، **لماذا يمرض القلب بالدُّنيا؟** لأنّه لم يُخْلَق للدُّنيا، بل خُلِق لذكر الله.

وقد ذكرنا قوله: **(وإذ قد خُلقَ القلب لأن يُعلم به، فتوجّهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنّظر)** فالقلب خُلق لكي يعرف ربّنا ويذكره، فإذا صُرفَ في معرفة الدُّنيا والإتقان فيها مرض.

لأجل أن يتبيّن لنا معنى الجملة: **(فَقَد استَبَانَ أَنَّ القَلبَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذِكرِ الله)** نضيف عندها ما ذكر سابقًا: **(فتوجهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنّظر)** معناها: استبان لنَّا أنّ القلب إنّما خُلق للفكر والنّظر فيما يوصلنا إلى الله، يعني: نبقى ذاكرين الله في كلّ شيء أمامنا، هذا هو المقصود بذكر الله هنا، **أن تفكّر وتنظر** حتى تصل إلى هذا الذّكر.

في كلام سليمان الخوّاص يوجد بيان **لماذا لا يشعر القلب باللّذة؟** لأنّه خُلِق ليفكّر فيما يوصله إلى الله، وخلق ليذكر الله، فحين يكون تفكيره مشغولًا بالدَّنيا يمرض، ويعجز عن القيام بوظيفته الّتي هي الذّكر فلا يستطيع، وسيتبيّن في الكلام القادم معنى أنّه يذكر الله.

يقول: **(فَإِذَا كَانَ القَلبُ مَشغُولًا بِالله، عَاقِلًا لِلحَقّ، مُتَفَكّرًا فِي العِلمِ، فَقَد وُضِعَ فِي مَوضِعِهِ، كَمَا أَنَّ العَينَ إِذَا صُرِفَت إِلَى النَّظَرِ فِي الأَشيَاءِ فَقَد وُضِعَتْ فِي مَوضِعِهَا)** هذا هو لبّ الرّسالة، أن تعلم أن قلبك

له وظيفة، وإذا صرفت قلبك في هذه الوظيفة ستجد النّتيجة، وإذا لم تصرفه في هذه الوظيفة ستضطرب عليك المسألة!

قال:

أَمَّا إِذَا لَم يُصرَفْ إِلَى العِلمِ وَلَم يُوعَ فِيهِ الحَقُّ فَقَد نَسِيَ رَبَّهُ.

معنى ذلك: إذا لم يُصرف القلب إلى العلم، ولم يصل إلى أن يعي الحق، فقد نسي ربّه، بناءً على ذلك (**فَقَد نَسِيَ رَبّه**) عكسها: ذكر ربه، **ما هو ذكر الله؟** أن يُصرف القلب إلى العلم، ويعي الحقّ، هكذا يذكر ربّه؛ لأنّه إمّا ذاكرًا، وإمّا ناسيًا. وهكذا فسّر كلمة (**فقد استبان أنّ القلب إنّما خلق لذكر الله**).

قال:

فَلَم يُوضَعْ فِي مَوضِعٍ بَل هُوَ ضَائِعٌ. -إذا ترك العلم سيصبح ضائعًا- **وَلَا يَحتَاجُ أَن نَقُولَ: قَد وُضِعَ فِي مَوضِعٍ غَيرِ مَوضِعِهِ، بَل لَم يُوضَعْ أَصلًا.**

إمّا أن يوضع في موضعه الصّحيح وإمّا يكون ضائعًا لا موضع له، وهذا مثل قوله تعالى: {**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ**}[1] أي: تخطفه من كلّ جهة، مثل هذا القلب إذا لم يكن جالسًا لمعرفة الله فصاحبه إنسان ضائع، كلّما وجد شيئًا في الطّريق، أخذ منه جزءًا.

قال:

فَإِنَّ مَوضِعَهُ هُوَ الحَقُّ، وما سِوَى الحَقِّ بَاطِلٌ، فَإِذَا لَم يُوضَعْ فِي الحَقِّ لم يَبقَ إِلَّا البَاطِلُ، والبَاطِلُ لَيسَ بِشَيءٍ أَصلًا، وَمَا لَيسَ بِشيءٍ أَحرَى أَلَّا يَكُونَ مَوضِعًا.

"**لَيسَ بِشيءٍ**" بذلك استفاد من آية يونس:

- إمّا يكون في الحقّ.
- وإمّا يكون في الضّلال، الّذي **ليس بشيء**.

قال:

والقلبُ هُوَ نَفْسُهُ لَا يَقْبَلُ إِلَا الحَقّ، فَإِذَا لَمْ يُوضَعْ فِيهِ، فَإِنَهُ لَا يَقْبَل غَيرَ مَا خُلِقَ لَه.

---

[1] سورة الحج: ٣١.

يصبح القلب ممتنعًا ضائعًا، فالقلب لا يقبل إلّا الحقّ، إذا لم يوضع فيه الحقّ فسيُغلق ولا يسمح لأيّ شيءٍ آخر بأن يدخل أو يستقرّ فيه.

ولذلك ترى تنقّل أهلّ الباطل من فكرة لفكرة لأنّها لم تدخل في القلب، إنّما تبنّى الفكرة وسارع إليها وكانت له مصالح؛ فأخذها وطار به، لكن في الحقيقة القلب لم يقبلها لذلك تنقّل من هنا لهنا!

مثال:

لمّا أتى الفكر الشّيوعيّ دخل النّاس في أحلام ما لها نهاية بأنه سيتساوى النّاس ولن تكون بينهم فروقات!!

القلب لا يقبل أبدًا أن لا يكون بين النّاس فروقات، فهناك من طار بها سواء أهل الماركسيّة أو العرب الّذين أخذوا النّظام الشّيوعيّ منهجًا، ولكن عند وقت التّنفيذ، القلب لم يستطيع أن يستوعب أنّ يتساوى الكلّ وأن تصبح الممتلكات على المشاع! وكيف تصير هذه المرأة زوجة لفلان وزوجة لعلّان وكيف تأخذ الأولاد منّي وتضعهم في مجمّعات! -طبعًا هذا النّظام طبّق عند أهل روسيا، ولم يصير عند العرب أبدًا- ولم يستطيعوا أن يطبّقوه إلّا بالحديد والنّار؛ لأنّ القلب لم يستوعب ذلك بسبب أنّ الفطرة ترفض ذلك؛ ولذلك قال:

{سُنَّةَ اللَّهِ}[1]

{وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}[2].

فطرة فطر النّاس عليها، لا يمكن أن يقبل خلافها.

السّؤال: **لمَ استمروا على هذا النّظام يطبّقونه على ما يقارب ٥٠ سنة؟** الجواب: المصالح، يكذبون على أنفسهم وبدلًا من أن يكون في المجتمع ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، وسفلى. جعلوها طبقتين ودفنوا الطّبقة الوسطى وقالوا: نحن طبّقنا المساواة، المهم ستدفن الشّيوعيّة في التّاريخ ولن يكون لها قيمة، ولن تجد إلّا كبار السّن من يعلم شيئًا عن الشّيوعيّة، ولكن اذهب واسأل أيّ شاب لن تجده يعلم عن الشّيوعيّة وكذلك من بعدهم لن يعلموا عنها أكثر، جميعها ستلقى في مزبلة التّاريخ، والرأسماليّة سيُعَجَّل عليها كذلك وستلقى في مزبلة التّاريخ؛ والسّبب: أنّ القلب لا يقبل إلّا الحقّ، لكن الشّيطان لا ييأس ولن ييأس، والآن لا نعلم ما هي البدعة الجديدة الّتي سيخرجها لهم.

(1) سورة الفتح: ٢٣.

(2) سورة الأحزاب: ٦٢.

قال:

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَتْرُوكٍ مُخَلًّى فَإِنَّهُ لَايَزَال فِي أَوْدِيَةِ الأَفْكَار وَ أَقْطَار الأَمَانِي، لَا يَكُونُ عَلَى الحَالِ الّتي تَكون عَلَيهَا العَين وَالأُذُنُ مِن الفَرَاغِ والتَّخَلِّي، فَقَد وُضِعَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ، لَا مُطلَقٌ ولَا مُعَلْقٌ، مَوْضُوعٌ لَا مَوضِعَ لَهُ، وهَذَا مِن العَجَبِ، فَسُبحَان رَبّنَا العَزِيزِ الحَكِيمِ!

الآن القلب ليس في مكانه (**وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَتْرُوكٍ مُخَلًّى فَإِنَّهُ لَايَزَال فِي أَوْدِيَةِ الأَفْكَار وَ أَقْطَار الأَمَانِي، لَا يَكُونُ عَلَى الحَالِ الّتي تَكون عَلَيهَا العَين وَالأُذُنُ مِن الفَرَاغِ والتَّخَلِّي**) أي: ممكن أن تبقى الأذن فترة لا تسمع شيئًا، والعين ممكن أن تبقى فترة لا ترى شيئًا جديدًا متخلّية، قد تصيبك لحظة صمت وذهول عينيك لا ترى شيئًا وأذنك لا تسمع شيئًا، لكن القلب في الأودية يفكّر ويفكّر، "يفكّر" هذه الصّفة الخاصّة به.

(**فَقَد وُضِعَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ، لَا مُطلَقٌ ولَا مُعَلْقٌ**) فالمطلق: هو الّذي إن لم تضعه في المكان الصّحيح أطلق وذهب، ولا هو المعلّق فتقول: أنا وضعته في هذا المكان، بل (**لَا مُطلَقٌ ولَا مُعَلْقٌ، مَوْضُوعٌ لَا مَوضِعَ لَهُ، وهَذَا مِن العَجَبِ، فَسُبحَان رَبّنَا العَزِيزِ الحَكِيمِ!**)

قال:

و إنَّمَا تَنكَشِفُ لِلإنسَانِ هَذِهِ الحَالُ عِندَ رُجُوعِهِ إِلَى الحَقّ، إمَّا فِي الدُّنيَا عِندَ الإِنَابَةِ، أَو عِندَ المُنقَلَبِ إِلَى الآخِرَةِ، فَيَرَى سُوءَ الحَالِ الّتي كَانَ عَلَيهَا، وَكَيفَ كَانَ قَلبُهُ ضَالًّا عَن الحَقّ، هَذَا إِذَا صُرِفَ فِي البَاطِلِ.

فسبحان ربّنا العزيز الحكيم وصف لنًا الشّيء العجيب الّذي هو (**لَا مُطلَقٌ ولَا مُعَلْقٌ**).

يبدأ كلام جديد الآن: (**و إنَّمَا تَنكَشِفُ لِلإنسَانِ هَذِهِ الحَالُ الّتي** -هي في أودية- **عِندَ رُجُوعِهِ إِلَى الحَقّ**) يعني: عندما يكون ضالًّا لا يشعر بضياع قلبه لأنّه لا يعرف لقلبه موضع ولا وظيفة فهو ليس له موضعًا، هذا يكون (**إمَّا فِي الدُّنيَا عِندَ الإِنَابَةِ**) يُنِيب لربّ العالمين، الإنابة الحقيقيّة الّتي فيها يتغيّر تفكير الإنسان ويتصوّر وظيفته الحقيقيّة.

أو -نعوذ بالله- باقٍ في شرّه وضياعه فماذا تكون النّتيجة؟ أنّه لا يستفيق إلّا (**عِندَ المُنقَلَبِ إِلَى الآخِرَةِ**) فيرى سوء الحال الّتي كان عليها، ويرى كم هو منحرف عن الصّراط المستقيم، وكيف كان قلبه ضالًّا عن الحقّ يقول: (**هَذَا إِذَا صُرِفَ فِي البَاطِلِ**).

قال:

فَأَمَا لَو تُرِكَ وَحَالُهُ الّتي فُطِرَ عَلَيهَا فارغًا عَن كُلِّ ذِكرٍ، خاليًا عَنْ كُلِّ فِكرٍ، فَقَد كَانَ يَقبَلُ العِلمَ الّذي لَا جَهْلَ فِيهِ، وَيَرى الحَقَّ الّذي لَا رَيبَ فِيهِ، فَيُؤمِنُ بِرَبِّهِ ويُنِيبُ إِلَيهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَو يُنَصِّرَانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمعَاءَ، لا يُحَسُّ فِيهَا مِن جَدعٍ {فِطْرَتَ اللَّهِ الّتي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}[1].

إذًا الّذي لا يفيق إلّا إذا لقي الله، هذا الّذي امتدّت يدّ إلى قلبه فعبثت فيه، لكن الّذي تُرِكَ فارغًا لم تأتيه أفكارًا هذا يُنتظر أنّه قد يأتي يومًا فيُصادف الحقّ فيقبَلُه.

لذلك دائمًا نُكرر: "لا تهمل أبنائك وتتركهم يعبث فيهم أهل الباطل" وقد كتب الدّكتور: بكر أبو زيد -رحمه الله- رسالة خطيرة جدًّا عن مسؤوليّة الآباء عند اتّخاذهم قرار أين يضعون أبناءهم، مسؤوليتهم أن يقرؤوا هذه الرّسالة، وهو يتكلّم فيها عن المدارس العالمية ولأيّ شيء جُعلت وأيّ هدف أرادت وكيف أنّ مقصدها الحقيقيّ العبث في الفطرة السّويّة، وهذه الرّسالة موجودة على محركّات البحث وكذلك مطبوعة، فالّذي يتّخذ قرارًا ويعرف أنّ الله سيسأله عن أبنائه لا بدّ أن يقرأ هذه الرّسالة قبل اتّخاذ قرار وضع الأبناء في المدارس؛ لأنّه مهما كان حصل في المدارس العربية من أخطاء، من سوء، لكن لا يزال لا يوجد يدّ ممتدّة للفطرة، لكن هذه المدارس العالميّة لها مقصدها.

إذًا في هذه الفقرة بيّن أنه إذا بقيت الفطرة سويّة سيأتي الوقت الّذي فيه يرى الحقّ الّذي لا ريب فيه فيؤمن بربّه وينيب إليه. وهذا الّذي يحصل.

قال:

وإِنَّمَا يَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ الحَقّ فِي غَالِبِ الحَالِ:

*** شُغْلُهُ بِغَيرِهِ مِن فِتَنِ الدُّنيَا، ومطالبِ الجَسَدِ، وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الحَالِ كَالعَينِ النَّاظِرَةِ إِلَى وَجهِ الأَرضِ، لَا يُمكِنُهَا أَن تَرَى مَعَ ذَلِكَ الهِلَالَ.**

الآن هذه الشخص الّذي (**لَو تُرِكَ وَحَالُهُ**) **ماذا يتوقّع منه؟** يتوقّع منه أنَّهُ إذا أصاب الحقّ **سينيب**. ما الّذي يمنعه من الإنابة؟ إنّما يحول بينه وبين الحقّ في غالب الحال انشغاله بفتن الدُّنيا الّتي تشغل القلب عن ذكر الله.

وضرب مثالًا: (**فَهُوَ فِي هَذِهِ الحَالِ كَالعَينِ النَّاظِرَةِ إِلَى وَجهِ الأَرضِ** -مشغولة بالأرض، هل سترى الهلال؟- **لَا يُمكِنُهَا أَن تَرَى مَعَ ذَلِكَ الهِلَالَ**.

[1] سورة الرّوم: ٣٠.

السّبب الثّاني الّذي يحول بين القلب وبين الحقّ:

* أَوهُوَيَمِيلُ إِلَيهِ فيصُدُّهُ عَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ، فَيَكُونُ كَالعَينِ الّتي فِيهَا قَذًى، لَا يُمكِنُهَا رُؤيَةُ الأَشياءِ.

يميل إلى فتن الدُّنيا وليس إلى الحق، لم يفتن تمامًا لكن في قلبه ميول، نفسه تنازعه، وضرب لهذا مثالًا: (فَيَكُونُ كَالعَينِ الّتي فِيهَا قَذًى، لَا يُمكِنُهَا رُؤيَةُ الأَشياءِ.)

سنشرح التّشبيهين الآن:

- إمَّا أنَّه مشغول تمامًا مثل واحد ينظر إلى الأرض فلن يرى الهلال في السّماء.
- أو يميل، ولكن ليس مشغول تمامًا مثل واحد عينه فيها قذى.

الآن سيتكلّم عن الهوى، هل الهوى يؤثّر على الحق؟ نعم، الهوى يؤثّر على الحقّ قبل معرفة الحقّ وبعد معرفة الحقّ.

أوّلًا: تأثير الهوى "قبل معرفة الحقّ"

قال:

ثُمَّ الهَوَى قَد يَعتَرِضُ لَهُ -للقلب- قَبْلَ مَعرِفَةِ الحَقِّ، فيصُدُّهُ عَن النَّظَرِ فِيهِ -الحقّ- فَلَا يَتبَيَّنُ لَهُ الحَقُّ كما قيل: "حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمِي وَيُصِمُّ".

السّبب في ذلك أنّ الهوى إذا ملأ القلب منعه من أن يميل إلى الحقّ، القلب في أصله مائل إلى الحقّ، ثمّ إذا مال إلى الدُّنيا، أصبح كأنّ في عينيه قذى ممكن أن يدفعه عن رؤية الحقّ، والهوى يعترض طريقه قبل معرفة الحقّ فيصدّه عن النّظر فيه، الآن من كانت في عينه قذى يحتاج فقط أن يمسحها، ولكن قبل أن يمسحها سبق الهوى، **ماذا فعل؟** صدَّهُ تمامًا عن النّظر فيه كما قيل: "حُبُّكَ الشَّيءَ يُعمِي وَيُصِمُّ" بعد القذى البسيط أصبح عمى تمامًا، لمّا أصابه العمى بسبب حبّ الدُّنيا (فَلَا يَتبَيَّنُ لَهُ الحَقُّ.)

قال:

فَيَبقَى فِي ظُلمَةِ الأَفكَارِ، وكثيرًا مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَن كِبْرٍ يَمنَعُهُ عَن أَن يَطلُبَ الحَقَّ، {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}[1].

() سورة النّحل: ٢٢.

(فَيَبقَى فِي ظُلمَةِ الأَفكَارِ، وكثيرًا مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَن كِبْرٍ يَمنَعُهُ عَن أَن يَطلُبَ الحَقَّ) الآن ظهر مرض جديد، هو: حبّ الدُّنيا، ولا يريد أن يقول له أحد: "أنّت مخطئ، أو أنت انحرفت عن الطّريق المستقيم، أو ما كان الواجب عليك أن تفعل ذلك" هو في نفسه كِبْر، هذا الكبر منعه أن يطلب الحق، أو أن يقبل الحق إلى أن وصل إلى هذه الحال: {فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}.

ثانيًا: تأثير الهوى "بعد معرفة الحقّ"

قال:

وَقَد يَعرِضُ لَهُ الهَوَى بَعْدَ أَن عَرَفَ الحَقَّ، فَيَجحَدُهُ وَيُعرِضُ عَنه.

الآن أصبح عندنا:

مجموعة أولى: فطرتهم سويّة، وصل لهم حبّ الدُّنيا قبل أن يعرفوا الحقّ.

مجموعة ثانية: فطرتهم سويّة، عرفوا الحقّ ثمّ بعد ذلك جاءهم حب الدَّنيا، وهؤلاء من قال عنهم:

وَقَد يَعرِضُ لَهُ الهَوَى بَعْدَ أَن عَرَفَ الحَقَّ، فَيَجحَدُهُ وَيُعرِضُ عَنه كَمَا قَالَ رَبُّنَا سُبحَانَهُ فِيهِم: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الّذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}[1].

هم يرون بأعينهم سبيل الرّشد، ويرون سبيل الغيّ، ثمّ بعد ذلك يتّخذون قرارات وهم يرون يعني: لم يضلّوا.

إذًا هؤلاء الإثنين الأخيرين كأنّهم من قال عنهم: (هذا إِذَا صُرِفَ فِي الباطِلِ)[2] **من هم الّذين صُرفوا في الباطل؟** مجموعتان:

الأولى: جماعة على فطرة سويّة ولم تعرف الحقّ، ووقع في قلبها الهوى، إلى أن وصل الهوى أن أعماهم وأصمّهم، هؤلاء **لماذا لم يبحثوا عن الحقّ**؟ كبرًا؛ إذًا ينصرفون في الباطل.

الثّانية: جماعة على فطرة سويّة وعرفوا الحقّ، **ماذا يحصل؟** انصرفوا أيضًا إلى الباطل. **من الّذي سينجو؟** الّذي باقٍ على الفطرة السّويّة وعرف بها الحقّ، وطلبه، وحفظ نفسه من التّعلق بالدُّنيا.

---

(1) سورة الأعراف: ١٤٦.

(2) المتن صـ٣٢.

أمّا من لا يحمي نفسه من الدّنيا فسيقع في هذا الامر الّذي هو أنّه (يَعرِضُ لَهُ الهَوَى بَعْدَ أن عَرَفَ الحَقَّ، فَيَجحَدُهُ.)

قال:

ثُمَّ القَلبُ لِلعِلمِ كَالإِنَاءِ لِلمَاءِ، وَالوِعَاءَ لِلعَسَلِ، وَالوَادِي لِلسَّيلِ، كَمَا قَالَ تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}[1]

وقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ((إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ مِن الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، فَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسَكَتِ المَاءَ فَسَقَى النَّاسُ وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمسِكُ مَاءً وَلَا تُنبِتُ كَلًا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفعَهُ مَا أُرسِلْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَن لَم يَرفَعْ بِذَلِك رَأْسًا، وَلَمْ يَقبَلْ هُدَى اللهِ الّذي أُرسِلتُ بِهِ))[2]

وَفِي حَدِيثِ كُمَيلِ بنِ زِيَادٍ، عَن عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: "القُلوبُ أَوعِيَةٌ، فَخَيرُهَا أَوعَاهَا"[3]

وَبَلَغَنَا عَن بَعضِ السَّلَفِ قال: "القُلُوبُ آنِيَةُ اللهِ فِي أَرضِهِ، فَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى أَرَقُّهَا وَأَصفَاهَا". وَهَذَا مَثَلٌ حَسَنٌ؛ فَإِنَّ القَلبَ إِذَا كَانَ رقيقًا لَيِّنًا كَانَ قَبُولُهُ لِلعِلمِ سَهلًا يَسيرًا، وَرَسَخَ العِلمُ فِيهِ وَثَبَتَ وَ أَثَّرَ، وَإِن كَانَ قَاسيًا غَلِيظًا كَانَ قَبُولُهُ لِلعِلمِ صَعبًا عَسِيرًا.

وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ أَن يَكُونَ زَكِيًّا صَافيًا سَلِيمًا، حَتَّى يَزكُوَ فِيهِ العِلمُ وَيُثمِرَ ثَمَرًا طَيِّبًا، وَإِلَّا فَلَو قَبِلَ العِلمَ وَكَانَ فِيهِ كَدَرٌ وَخَبَثٌ أَفسَدَ ذَلِكَ العِلمَ، وَكَانَ كَالدَّغَلِ فِي الزَّرعِ، إن لَم يَمنَعِ الحَبَّ مِن أَنْ يَنبُتَ مَنَعَهُ مِن أَنْ يَزكُوَ وَيَطِيبَ، وَهَذَا بَيِّنٌ لِأُولِي الأَبصَارِ.

انتهينا الآن من الحديث عن أن القلب إذا لم يُشغل بالحقّ انشغل بالباطل وانصرف إلى الباطل.

إذًا ما المراحل الّتي يمربها القلب؟

المرحلة الأساسية: أن يكون معه فطرة سويّة، وطالبًا للحقّ فيسأل:

- ما سبب وجودي؟
- ما سبب وجود هذه الأشياء؟

---

[1] سورة الرّعد: ١٧.

[2] أخرجة البخاري ومسلم.

[3] رواه الخطيب البغدادي في كتابة "الفقية والتّفقه"

- لماذا يتجدّد اللّيل والنّهار؟
- لماذا يولد النّاس ثمَّ يموتون؟
- من الّذي أوجد الأشياء؟

هذه هي الأسئلة الفطريّة الطبيعيّة الّتي ستوصله للحقّ، ثمّ إذا سلمت فطرته السّويّة ووصله الحقّ، هنا سيحصل عنده التّعارض بين:

- طلب استقامة نفسهِ.
- وبين ما يجب عليه من التّكاليف، أو ما يلزمه الحقّ من أمور. فيظهر الهوى الآن، **ماذا يفعل الهوى؟**

مع الأوّل الّذي عرف الحقّ قبل الهوى، يمكن أن يصرفه عن الحقّ بعدما عرفه؛ ومن ثمَّ يعود إلى الباطل؛ فيرى سبيل الغيّ ويتّخذه سبيلًا، ويرى سبيل الرّشد ولا يتّخذه سبيلًا.

مع الثّاني صاحب الفطرة السّويّة الّذي سبق إليه الهوى، يكون له حال:

- إما أن يمشي مع هواه ولا يجد نفسه إلّا تابعًا لهواه.
- إمّا لم يُرزق العلم ولكن فطرته باقية على أنّها سويّة وهجم عليه الهوى سابقًا له، فيجد نفسه غير راغب في معرفة العلم، يصدّه الهوى عن طلب العلم فيكون بذلك متكبّرًا، أي أنّ **الكبر هو الّذي أغلق عليه**.

الآن انتهينا من الأحوال وسنرجع مرّة ثّانية للقلب، ونزيد على ما قاله سابقًا:

- (فَإِذَا كَانَ القَلبُ مَشغُولًا بِاللهِ، عَاقِلًا لِلحَقِّ، مُتَفَكِّرًا فِي العِلمِ، فَقَد وُضِعَ فِي مَوضِعِهِ) يكون فيه العلم ويشتغل به.
- (أَمَّا إِذَا لَم يُصرَفْ إِلَى العِلمِ وَلَم يُوعَ فِيهِ الحَقُّ فَقَد نَسِيَ رَبَّهُ.)

الآن يقول: (ثُمَّ القَلبُ لِلعِلمِ كَالإِنَاءِ لِلمَاءِ، وَالوِعَاءَ لِلعَسَلِ، وَالوَادِي لِلسَّيلِ) هنا شبّه القلب كأنّه ظرف للعلم، وأتى بآية سورة الرّعد: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}

لو أخذنا المعنى بظاهر الآية يكون: الماء نزل من السّماء والأودية هي الإناء.

وبالتّشبيه:

- شبّه العلم النازل من السّماء "الوحي" بأنّه كالماء.
- وشبّه القلب بالوادي.

فقال من هنا: (**إنّ القَلبُ لِلعِلمِ كَالإِنَاءِ لِلمَاءِ، وَالوِعَاءَ لِلعَسَلِ، وَالوَادِي لِلسَّيلِ**) يعني: أنّه ظرف.

وأيضًا ممّا يدلّ على ذلك الحديث الّذي أورده: ((**إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِن الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أَرْضًا**)) فهو استشهد بالحديث لنفس المعنى إنَّ القلب ظرف للعلم يوضع فيه.

(**وَفِي حَدِيثِ كُمَيلِ بنِ زِيَادٍ، عَن عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: "القُلُوبُ أَوعِيَةٌ** -يوضع فيها العلم- **فَخَيرُهَا أَوعَاهَا"**) أي أنّ هذا الظّرف ليس مثل بقيّة الظّروف جامدة ليس مثل الوادي "جامد"، هذا الظّرف بالنّسبة للمظروف فيه له أثره الشّديد، سنرى...

(**وَبَلَغَنَا عَن بَعضِ السَّلَفِ قال: "القُلُوبُ آنِيَةُ اللهِ فِي أَرضِهِ، فَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى أَرَقُّهَا وَأَصفَاهَا"**)

أصبحت الآنية -القلب- لها صفتان: الرّقة، والصّفاء.

وهذا يذكّرنا بآية سورة النّور.

قال: (**وَهَذَا مَثَلٌ حَسَنٌ؛ فَإِنَّ القَلبَ إِذَا كَانَ رقِيقًا لَيِّنًا كَانَ قَبُولُهُ لِلعِلمِ سَهلًا يَسِيرًا، وَرَسَخَ العِلمُ فِيهِ وَثَبَتَ وَ أَثَّرَ**) سنرى كيف سيتأثر العلم والحقّ بصفة القلب، إذا كان القلب رقيقًا لينًّا؛ سيقبل العلم وسيكون سهلًا يسيرًا عليه، ولن يعاني من يعلمه؛ لأنّ قلبه رقيق سيقبل مباشرةً، وأيضًا سيرسخ العلم فيه، ويثبت أثره.

في المقابل: (**وَإِن كَانَ قَاسِيًا غَلِيظًا كَانَ قَبُولُهُ لِلعِلمِ صَعبًا عَسِيرًا**) لذلك تجد بعض النّاس، يسألك السّؤال فما أن توحي له بالإجابة إلّا وقد امتلأ بها لأنّ قلبه رقيق، فهم من الإشارة ما هو المقصود.

وقد ذكرت لكم سابقًا هذه القصّة لتعرفوا كيف يختلف النّاس: قابلت امرأة في خارج الحرم -الدّروس كانت خارج الحرم- سلكت طريق الاستقامة منذ زمن قليل وهي من أحد دول المغرب العربيّ واستقامت على استقامة الإعلام، فتحت التّلفاز وجدت طلبة العلم والمشايخ وسمعت دروس في السّير عن أبي بكر -رضي الله عنه- وعمر -رضي الله عنه- وحين سمعت عن هؤلاء الكرام تصوّرت الكمال في المستقيمين، وهي في نفسها قد امتلأت بالجو الكامل، فلما وصلت للعمرة أُبتليت بمجموعة بلاءات ليس من اليسير أن تجتمع للإنسان هذه البلاءات كلّها مع بعض وهي مفهوم البلاء ليس على بالها أبدًا، فهي أوّل ما سألتني

قالت لي مباشرة: وتقولون: أبو بكر وعمر!! ثمّ رأيت في الواقع...لا أدري ما الّذي تنتظره! وهذا الّذي سينتظره الإنسان عندما يكون مفهوم معيّن ليس داخل في ذهنه.

فبقيت قرابة الرّبع ساعة تشرح المواقف المتتالية الّتي حصلت لها، وأكيد حصلت لها لأنّ هذه المواقف مشهودة معروفة، لكن الشّيء العجيب أنّ كلّ هذه المواقف حصلت فيها، يعني: بعض النّاس يأتيه هذا الموقف ولا يأتيه الموقف الآخَر، لكن هي انتظمت لها كلّ المواقف!

في بداية إجابتي قلت لها: "لا بد أن نعرف أنّ الدُّنيا ابتلاء، وأنكِ عندما تأتين طائعة لله لا بدّ أن يختبر طاعتكِ" ولم أكمل الكلام بعد ولكن فقط هذه الجملة وهي لم تأخذ دقيقة أو نصف الدّقيقة، بعدها هي تابَعَتْ الكلام...وتركتني وذهبت وهي تتكلّم وتكلّم نفسها! فهِمَت الموضوع وأكملت الكلام كلّه بأنّ هذا اختبار وأنّها لم تنجح فيه، وكان المفترض أن تصبر، وكلّ الباقي الّذي تريدين أن تقوليه لها؛ هي قالته لنفسها.

هكذا تفهمين أنّ هناك قلوب رقيقة حتى لو جاءتك غاضبة، لكن بمجرد أن ترشديها لطرف الحق مباشرةً تستضيء به؛ ولذلك أنت ترى في حياتك هؤلاء النّاس أصحاب القلوب الرّقيقة.

وكذلك ترى في حياتك أصحاب القلوب القاسية والغليظة عندما يريدون استشارتك يشرحون لك الموضوع وهم يريدون منك أن تقول لهم الرّأي الّذي يدفعونك إليه من بداية كلامهم! وأحسن حالة مع هؤلاء أن تقول: لا أعلم؛ لأنّك لو علمت ستخسرون بعضكم ولن يُستجاب لك فالأفضل أن يبقى يسمع وعظك من بعيد.

ولا تظنوا أنّ هذا الكلام في العوام فقط، بل هذا موجود حتّى في طلبة العلم!! في التّنظير لا يوجد من هو أحسن منَّا.

ولكن في المواقف قليلًا ما تجد قلبًا ليّنًا يقبل الحقّ خصوصًا لو كان الحقّ عليه.

إذًا القلب له أثر في استقبال العلم، في فهمه، في وضعه في مكانه. (**وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ أَن يَكُونَ زَكِيًّا صَافِيًا سَلِيمًا**) وهذه صفات لا بدّ للقلب أن يتحلّى بها.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله

نهاية اللّقاء الثّاني

اللّقاء الثّالث

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نكمل قراءة: **رِسَالَةٌ فِي القَلْب و أَنَّهُ خُلِقَ لِيُعْلَم بِهِ الحَقُّ ويُسْتَعمَلَ فِيْمَا خُلِقَ لَهُ.**

ذكرنا أنّ الغاية: هي أن نعلم أنّ القلب وظيفته أن يُعلم به الحق، كما أنّ العين وظيفتها أن تبصر، وكما أنّ الأذن وظيفتها أن تسمع.

وفي الكلام السّابق ذكر أنّ القلوب مثل الأوعية، كالإناء تضع فيه ماء، تضع فيه عسل، مثل الوادي للسّيل، وذكر حديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِن الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ)) وفهمنا هنا أنّ الحديث يقصد به تشبيه القلب بالأرض، والعلم بالماء، إذا نزل الماء اختلفت الأراضي كما إذا نزل العلم اختلفت القلوب.

الأرض الأولى: ((فَأَنبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ)) هذه الأرض كانت تحمل من البذور، تحمل من الخيرات ما تحمل، فجاء وتغلغل إلى داخلها، ووصل إلى بذورها فحرّك ما فيها من خيرات فأنبتت. فإذًا هذه تكون قد قبلت الماء.

وهكذا نقول: القلوب مثل الأرض فيها نبتة الفطرة، إذا جاء الغيث من السّماء أخرجت أحسن ما يمكن أن يخرج من النّبات، وهي مع ذلك ممكن أن تُخرج ما يأكله الإنسان، وممكن أن تُخرج ما تأكله البهائم.

فالأرض في إخراجها ليست متساوية، كذلك القلوب في إخراجها لا تكون متساوية، لكن عامةً ستخرج شيئًا طيّبًا في مقابل أنّ هناك أراضي أجادب، لا يوجد بداخلها ذلك البذر الطيّب، ولا الاستعداد القويّ للإنبات لكنها **تُمسك الماء**، فإذا أمسكت الماء نفعت النّاس أيضًا لأنّ النّاس يسقون ويزرعون.

وتصوروا هذا العلم ينزل على قلوب:

- من القلوب من يدخل إلى أعماقها العلم ويُخرِج خيراتها، والنّاس يقطفون من ثمارها على اختلاف في جودة ثمارها.

- وهناك جماعة لا يدخل العلم إلى جذورهم إنّما يحتفظون به، فإذا جئت لهم وجدت سقاء على الأقل، حتى لو لم تجد ثمرة، وجدت سقاء تشرب منه، وهو هنا يشبّه طلبة العلم الّذين عندهم فهم

غزير، فَهَم وقوّة في تصوّر المسائل، فكلّما نزل عليهم العلم الّذي هو كالماء، أنبت منهم، فالنّاس أخذوا منها ثمرة، ففهموا، وتحرّكت قلوبهم.

- وهناك جماعة أخرى جاءهم العلم لكنّهم فقط ممسكين به مثل إناء يشرب منه النّاس، هذا ينفع المسلمين، إذا طلبت منه أن يُقْرِئك أقرأك، وإذا طلبت منه أن يُذَكّرك بحديث للنّبي -صلّى الله عليه وسلّم- ذكّرك، وإذا طلبت منه حُكم ذكر لك

الحكم، لكنّه ما وصل إلى جذر قلبه، فتنتفع من ثمرته، لكن فقط ماسك بالعلم، حامله لك، مثل الإناء، فهو في حالة يشبه الكتاب، لكن طبعًا هو طيّب وخير وبركة، أكيد أنّه خير وبركة، أحسن من الّذي بعده، وإن كان أقلّ منزلة من الّذي قبله.

قال عن المثل الثّالث: ((أَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا، إِنَّمَا هِيَ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً)) أراضٍ مستوية، فلا هي ممسكة للماء، ولا هي نابتة ((فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينَ اللَّه، وَنَفَعَه ما أُرسلتُ بِهِ)) المثلان الأوّلان.

((وَمثلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأْسًا وِلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الّذي أُرْسِلْتُ بِهِ)) الّذي هو الثّالث.

الاثنان الأوّلان يعتبران ممدوحين على مراتب، وهكذا في الشّريعة، دائمًا المسألة فيها مراتب، ليس هناك عنوان واحد لكلّ شيء، لا تخطئ هذا الخطأ، نفس الحدث يكون واقع على ناس بطريقة، وعلى ناس آخرين واقع بطريقة أخرى، وهذا الكلام كما نقوله هنا بالنّسبة للعلم، نقوله لفقه أيّ مسألة، ولأثر أي حال على النّاس، يعني هل كلّ هذه القلوب تفقه المواقف فهمًا واحدًا؟ لا، وها هي الأزمة الّتي نمرّ بها تدلّ على ذلك.

النّاس ينقسمون إلى قسمين في هذه الأزمة الّتي نمرّ بها:

القسم الأوّل: القاسية قلوبهم، قسم لم ينتفع بالأزمة، إنّما نزلت عليه بلاء وفتنة -الله يعيذنا- هذا القسم الّذي هو ((قِيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً)) كلّما ناقش هؤلاء أيّ أزمة تمرّ عليهم، ناقشوها من جهة كيف يهربون؛ بسبب قسوة قلوبهم فلا تراهم في المواقف منتفعين ولا متأثّرين ولا معتبرين، لا يوجد اعتبار أبدًا، الاستفادة المطلوبة من الموقف بعيدة، كلّ الّذي يفكّر فيه، ألّا تضيع مصالحه الدّنيويّة.

القسم الثّاني: هؤلاء أناس ليّنة قلوبهم انتفعوا من البلاء، **كيف انتفعوا من البلاء؟** على ضروب مختلفة، لكن في الأصل ينقسمون إلى قسمين:

- قسم وصل إلى قوّة الشّعور بعظمة الله، وقوّة الانكسار والتّوبة إلى الله، وزاد توحيدًا لله، وأصبحت قلوبهم لا تخشى إلّا الله، هؤلاء يشبهون ما ذكر في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاس إِنَّ النَّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ*فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[1] فهؤلاء ما رأوا في هذا الحدث إلّا قوّة الله، عظمة الله، إلّا أنّ الأمر بيد الله، وهذا لديهم لا يتعارض بطريقة مع الأسباب ولا يحتاجون أن يأتي أحد ويقول لهم: "لا بدّ من الأخذ بالأسباب" لأنّهم ليس لديهم مشكله مع الأسباب، بل يعلمون أنّ الأسباب من عند الله، ويعلمون أنّ الله يختبرنا بالأخذ بالأسباب، ويعلمون أنّ اليوم قد يقال: "هذا السّبب يفيد" وغدًا يقال: "لا، هذا لا يفيد!".

- قسم انتفع من الحدث وكلّما ذكّر تذكّر، وكلّما أخبر عن عظمة الله وجدت في نفوسهم أثرًا، فهؤلاء فيهم خير كثير، ويعرفون النّصوص، وينتفعون بها، لكن إذا واجههم أحد من الصّنف القاسي القلب وعنده قوّة لا يستطيعون الرّد ويهربون

منه -والصّحيح أن تهرب منه في كلّ الأحوال- فهؤلاء ليس لديهم ما يحملهم على نشر ما معهم، لكن معهم الخير الكثير، فهؤلاء إذا أقبل عليهم أهل الخير سيأخذون الخير وإذا أقبل عليهم أهلّ الشّر لا يقبلون منهم الشّر، مثل الوادي إذا أقبل عليه من هو عطشان يريد الماء يستفيد، لكن لو أراد شيئًا آخر لا يجده.

وبذلك تفهم ما يرد في كلام الله -عزّ وجلّ- عن أثر القرآن على النّاس: أنّه هدى، ونور، وشفاء لبعض النّاس، ولبعض النّاس القرآن عليهم عمى، فهكذا قاسي القلب، وهكذا ليّن القلب ولين القلب له درجات.

قال: (وَفِي حَدِيثِ كُمَيلِ بنِ زِيَادٍ، عَن عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: "القُلوبُ أَوعِيَةٌ فَخَيرُهَا أَوعَاهَا") عرفنا هذا الأمر أنّك تجمع في قلبك هذا الحقّ، فقلبك وعاء تجمع فيه وتبذل جهدك أن تتفكّر حتى يدخل العلم إلى جذر قلبك فينبت الخيرات.

هل الفرق الوحيد بين القلوب التّقوى؟ سيتبيّن أنه ليس الفرق الوحيد التّقوى ولا الإيمان، هناك أيضًا عطايا من عند الله عزّ وجلّ.

قال: (وَبَلَغَنَا عَن بَعضِ السَّلفِ قَال: "القُلُوبُ آنِيَةُ اللهِ فِي أَرضِهِ، فَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى أَرَقُّهَا وَأَصفَاهَا" قَال: وَهَذَا مَثَلٌ حَسَنٌ؛ فَإِنَّ القَلبَ إِذَا كَانَ رَقِيقًا لَيِّنًا كَانَ قَبُولُهُ لِلعِلمِ سَهلًا يَسِيرًا).

---

[1] سورة آل عمران: ١٧٣-١٧٤.

هناك قلوب وصفها أنّها رقيقة، (وَرَسَخَ العِلمُ فِيهِ وَثَبَتَ وَ أَثَّرَ)؛ العلم يرسخ ويثبت بناءً على أنّ القلب لين؛ لأنّك لو أحضرت أي شيء ليّنًا وحاولت أن تؤثّر فيه سيتأثّر، لكن هات صخرة غليظة وحاول أن تؤثّر فيها لن تتأثّر.

(وَإِن كَانَ قَاسِيًا غَلِيظًا كَانَ قَبُولُهُ لِلعِلمِ صَعبًا عَسِيرًا) طبعًا ليصل القلب لأن يكون قاسيًا غليظًا فله أسبابه في لذلك.

وهذا موجود في رسالة لابن رجب أنصح باقتنائها ودراستها وقراءتها في هذا الوقت؛ لتتعلّم عن قسوة القلب، وتعرف هذا الأمر الخطير وتعرف كيف أنّ هذه الأيام فرصة لإزاله قسوة القلب.

إذًا هذا القلب القاسي كان قبوله للعلم صعبًا وعسيرًا؛ ولذلك لا تفكّر أن تسمع صاحب القلب القاسي بكاء إمام وتأثُّرَهُ بآيات، لأنّه لا يستطيع أن يتحمّل أنّ هناك أحد يبكي من خشية الله، فيشعر أنّه يمثّل أو يبالغ! وهو لو خصموا من راتبه ١٠ريال أقام الدُّنيا وما أقعدها، لكن إذا تأثّر غيره بكتاب الله وحزن يعتبره يبالغ في هذا الأمر، حتى ممكن يصف الّذي يحزن ويبكي أنّه منافق!

وهذا الأمر ليس بجديد عندما نقرأ في سورة التّوبة نعرف هذا الكلام ونعرف كيف أنّ المنافقين كانوا يتّهمون الغني المؤمن إذا تصدّق، قالوا: "يريد أن يشتهر يريد أن يرتفع، من هذا الّذي يعطي النّبيّ مزرعته أو يعطي النّبيّ ما يملك؟".

المهم أن تعلم أنّ هؤلاء صعب عليهم العلم، صعب عليهم أن يستوعبوا ما يظهر من مظاهر أهل العلم صعب عليهم جدًا.

فمن أجل الحفاظ على البقيّة الباقية في نفوسهم لا تعرّضوهم لمواقف الاختبار الصّعبة ولا تخبروهم عن الضّيق الّذي تجدونه في أنفسكم حين تمرّون على المساجد وتجدونها مغلقة لأنّك ستجد جوابًا مباشرًا: "إنّها مغلقة احترازًا ثمّ سيفتحونها!"

قال: (وَلَابُدَّ مَعَ ذَلِكَ أَن يَكُونَ زَكِيًا صَافِيًا سَلِيمًا) لا بدّ أن تكون هذه صفات القلب: أن يكون راغبًا في الحقّ، راغبًا في تزكية نفسه وفي معرفة الحقّ وأن يكون صافيًا من الكدر وسليمًا من المرض، بمعنى: أن لا يكون مثلًا مصابًا بالعناد، ليس شرطًا أن يكون عنده مزيد قوّة شخصيّة قد يكون ساكنًا هادئًا ولا توجد أيّ معالم ظاهره عليه لكن داخل قلبه يوجد عناد للحقّ، ولو تمكّن لكان ردَّ الحقّ. كيف تعرفه؟ تلاحظ مواقفه تجده غير سليم فيه أمراض من عناد، أو يسيء الظّن غير صافٍ.

فحين يكون راغبًا في الحقّ، صافيًا من الكدر سليمًا من المرض هذا (**يَزكُو فِيهِ العِلمُ وَيُثمِرَ ثَمَرًا طَيِّبًا، وَإِلَّا فَلَو قَبِلَ العِلمَ وَكَانَ فِيهِ كَدَرٌ وَخَبَثٌ أَفسَدَ ذَلِكَ العِلمَ**) أفسد الخبث العلم، وهذا مثَله عندما يحمل ناس من مرضى القلوب العلم -الله يعيذنا من هذه المصيبة العظيمة والله إنّها من أعظم المصائب علينا- أستغفر الله وأتوب إليه.

عندما يحمل مريض القلب العلم، بهذا العلم الّذي يحمله يخرج مرضه على النّاس. إذا كان يحبّ الشّهرة جرى وراءها، إذا كان يحبّ أن ينتقص من النّاس ويقلّل من قيمتهم، بالعلم يتهجّم على النّاس ويتكلّم عليهم باسم العلم وإذا كانت شهوته في المال باسم العلم يحصّل المال ويفتي فتاوى لنفسه ولغيره ويبيح المحرّم وأدخل نفسه في دوّامة.

قال: (**وَكَان كَالدَّغَلِ فِي الزَّرعِ**، -آفة- **إِن لَم يَمنَعِ الحَبَّ مِن أَنْ يَنبُتَ مَنَعَهُ مِن أَنْ يَزكُوَ وَيَطِيبَ**) يعني: هذا المرض الفساد الّذي في الأرض إذا ما منعت الحبّة تنمو منعتها أصلًا من أن تصير طيّبة بسبب ما فيها من دغل (**وَهَذَا بَيِّنٌ لِأُولِي الأبصَارِ**) وابن تيمية -رحمه الله- قد عارك أقوامًا استعملوا العلم لِنُصرَة هواهم، وحاربوا من أجل أن لا ينكسر كلامهم، ثمّ الله أذهب الباطل وأبقى الحقّ الحمد لله.

قال:

وتَلخِيصُ هَذِهِ الجُملَةِ: أَنَّهُ إِذَا استُعمِلَ فِي الحَقِّ فَلَهُ وَجهَانِ.

* **وَجهٌ مُقبِلٌ عَلَى الحَقِّ، وَمِن هَذَا الوَجهِ يُقَالُ لَهُ: وِعَاءٌ وَإِنَاءٌ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَستَوجِبُ مَا يُوعَى فِيه وَيُوضَعُ فِيهِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ صِفَةُ وُجُودٍ وثُبوتٍ.**
* **وَوَجهٌ مُعرِضٌ عَنِ البَاطِلِ، وَمِن هَذَا الوَجهِ يُقَال لَهُ: زَكِيٌّ، وَسلِيمٌ، وَطَاهِرٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأَسمَاءَ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الشَّرِّ، وَانتِفَاءِ الخَبَثِ والدَّغَلِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ صِفَةُ عَدَمٍ وَنَفيٍ.**

(**وتَلخِيصُ هَذِهِ الجُملَةِ: أَنَّهُ إِذَا استُعمِلَ**-القلب- **فِي الحَقِّ فَلَهُ وَجهَانِ:**

وَجهٌ مُقبِلٌ عَلَى الحَقِّ، وَمِن هَذَا الوَجهِ يُقَالُ لَهُ: وِعَاءٌ وَإِنَاءٌ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَستَوجِبُ مَا يُوعَى فِيه وَيُوضَعُ فِيهِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ صِفَةُ وُجُودٍ وثُبوتٍ، سيصف القلب من جهة إقباله، متوجّه إلى أين:

- يتجّه إلى الحقّ، وهو هنا يكون بمنزلة الوعاء يستوعب الحقّ.
- وإذا وصفته من خلفه أقول: يُعرض عن الباطل.

قلب مقبل على الحقّ: فهو يعي الحقّ، مُعرض عن الباطل: فهو سليم، زكيّ، طاهر.

هو يقول الآن كيف أقول عنه: إنّه وعاء وإنّه زكيّ وسليم وطاهر -الصّفات الّتي نعتبرها شروطًا-؟

قال: إذًا صفه من الجهتين: من جهة إقباله على الحقّ ومن جهة إعراضه عن الباطل.

وهذا هو الكلام السّابق (**ثمّ القَلبُ لِلعِلمِ كَالإِنَاءِ لِلمَاءِ... وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ أَن يَكُونَ زَكِيًّا صَافِيًا سَلِيمًا**) ملخّص هذا أن تصفه بالصّفتين: بناء على إقباله على الحقّ وإدباره عن الباطل.

فالأولى: صفة وجود وثبوت، نحن نثبت للقلب أنّه مقبل على الحقّ.

والثّانية: صفة عدم ونفي، نحن ننفي عنه الباطل أو أنّ فيه الخبث أو الدّغل، ننفي صفات الشّر، فنقول: الشّر معدوم والخير موجود.

مقبل على الحق، فالخير موجود...مدبر عن الباطل فالشّر معدوم، لا بدّ من وجود الصّفتين معًا.

ولا بدّ ليكون القلب عاملًا فيما خُلِقَ له أن يكون فيه الصّفتين معًا: الإقبال على الحقّ، الإعراض عن الباطل.

قال:

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ إِذَا صُرِفَ إِلَى البَاطِلِ فَلَه وَجهَانِ كَذَلِكَ:

* **وَجْهُ الوُجُودِ: أَنَّهُ مُنصَرِفٌ إِلَى البَاطِلِ، مَشغُولٌ به.**
* **وَوَجْهُ العَدَمِ: أَنَّهُ مُعرِضٌ عَن الحَقِّ، غَيرُ قَابِلٍ لَهُ.**

إذًا هذا الوصف الأوّل: إذا قلنا إنّ القلب انشغل بوظيفته، فإذا انشغل بوظيفته لا بدّ أن يكون: مقبلًا على الحّق فيصبح وعاءً له، ومعرضًا عن الباطل فيكون هاربًا منه.

وأمّا لو لم يقم بوظيفته وصُرف إلى الباطل فالقلب له وجهان أيضًا:

- جهة يتّجه لها: إلى الباطل (**أَنَّهُ مُنصَرِفٌ إِلَى البَاطِلِ، مَشغُولٌ به**) فهو يتّجه إلى الباطل وينشغل به، وهذه هي صفة الوجود عنده، عكس الأوّل.
- وجهة يهرب منها: (**أَنَّهُ مُعرِضٌ عَن الحَقِّ، غَيرُ قَابِلٍ لَهُ**) وهذه الصّفة المعدومة عنده، عكس الصّفتان الأوّلتان.

قال:

وَهَذَا يُبَيِّنُ مِن البَيَانِ وَالحُسنِ وَالصِّدقِ مَا فِي قولِهِ:

إِذَا مَا وَضَعْتَ القَلْبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ بِغَيْرِ إِنَاءٍ، فَهُوَ قَلْبٌ مضَيَّعُ

إذا لم تضع القلب في موضعه الحقيقيّ فمعنى ذلك أنّه لن يستوعب أصلًا، وسيكون كأنَّه بغير إناء، فلا شيء يوضع فيه، وإنّما يتبنّى النّاس الأفكار ليس بقبول القلب لها وإنّما يتبنّى الأفكار بالهوى، وقد مرّ معنا ذلك.

وقد مرّ معنا مثال: الشّيوعيّة وأنّ أصحابها لا يمكن أن يقبلوا أنّ هذه حياة طبيعية، **إذًا كيف تبنّوا هذه الفكرة؟** الهوى حكم عليهم، وجعلهم يتغاضون عن أيّ عيوب في الفكرة ويسيرون عميًا، واعلم أنّ هناك قادة وهناك تابعين، والقرآن ممتلئ بالآيات عن التّابعين وكيف يشتكون يوم القيامة ويقولون للقادة: أضللتمونا وفعلتم لنا.

وهذا موطن في القرآن يجب الاهتمام به وهو: الخصومة الحاصلة بين أهل النّار، ولا بدّ من دراسته لكي تعرف كيف تمتلئ القلوب بشيء لا يمكن أن تقبله؛ ولذا قال تعالى: {بَل مَكرُ اللَّيلِ وَالنَّهارِ}[1] يعني: هذا الّذي وصلنا إليه من قبول الباطل وعدم قبول الحقّ، إنّما هو مكر، فطوال الوقت تمكرون تمكرون، حتى أنّ هؤلاء الأتباع ظنّوا أنّ هذا هو الحقّ؛ لأنّهم لا يفكّرون، ولو كانوا يفكّروا لما قبلوا هذه الحالة.

إِذَا مَا وَضَعْتَ القَلْبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ بِغَيْرِ إِنَاءٍ، فَهُوَ قَلْبٌ مضَيَّعُ

إذا لم يكن القلب في موضعه الصّحيح سيكون قلبًا مضيّعًا لأنّه ليس له إناء، ولا يستطيع أن يستوعب، وهذه نقطة لا بدّ أن تخرجوا من الرّسالة بها، وكلّ الفلسفات الّتي تسمعونها إنّما هي {وَجَدنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنّا عَلى آثارِهِم مُقتَدونَ}[2] فقط، أو الضّعفاء يتابعون المستكبرين، ولا يوجد إلّا هذه الحال!

قال:

فَإِنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَن يُبَيِّنَ حَالَ مَنْ ضَيَّعَ قَلبَهُ، فَظَلَمَ نَفسَهُ بِأَنِ اشتَغَل بِالبَاطِلِ، وَمَلَأَ بِهِ قَلبَهُ حَتَّى لَم يَبقَ فِيهِ مُتَّسَعٌ لِلحَقِّ، وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الوُلُوجِ فِيهِ – ذَكَرَ ذَلِكَ مِنهُ، فَوَصَفَ حَالَ هَذَا القَلبِ بِوَجهَيهِ، وَنَعَتَهُ بِمذْهَبَيْهِ:

() سورة سبأ: ٣٣.

() سورة الزّخرف: ٢٣.

* فَذَكَرَ أَوَّلًا وَصفَ الوُجُودِ مِنهُ، فَقَالَ: "إِذَا مَا وَضَعتَ القَلبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ"، يَقُولُ: إِذَا شَغَلْتَهُ بِمَا لَم يُخْلَقْ لَهُ، فَصَرَفْتَهُ إِلَى البَاطِلِ حَتَّى صَارَ مَوضُوعًا فِيهِ.

ثُمَّ البَاطِلُ عَلَى منزِلَتَينِ:

إِحدَاهُمَا: تُشْغِلُ عَنِ الحَقِّ وَلَا تُعَانِدُهُ، مِثلُ الأَفكَارِ وَالهُمُومِ الّتي فِي عَلَائِقِ الدُّنيَا، وَشَهَوَاتِ النَّفسِ.

وَالثَّانِيةُ: تُعَانِدُ الحَقَّ وَتَصُدُّ عَنه، مِثلُ الآرَاءِ البَاطِلَةِ، وِالأَهوَاءِ المُردِيةِ مِنَ الكُفرِ وَالنِّفَاقِ وَالبِدَعِ وَشِبْهِ ذَلِكَ.

بَل القَلبُ لَم يُخلَقْ إِلَّا لِذِكرِ اللهِ، فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلَيسَ مَوضِعًا لَهُ.

يريد أن يبيّن معنى البيت: (إِذَا مَا وَضَعتَ القَلبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ) فيَقُولُ: (إِذَا شَغَلْتَهُ بِمَا لَم يُخْلَقْ لَهُ فَصَرَفْتَهُ إِلَى البَاطِلِ حَتَّى صَارَ مَوضُوعًا فِيهِ) يعني: حتى صار القلب كأنّه موضوع في الباطل وأصبح موضوع القلب هو الباطل.

إذًا غير موضعه: "الباطل " وموضعه: "الحق"

الآن سيشرح الباطل، وحال من كان قلبه موضوعًا في الباطل، وقد أشار إلى هذا المعنى فيما سبق أيضًا.

قال: (ثُمَّ البَاطِلُ عَلَى منزِلَتَينِ: إِحدَاهُمَا: تُشْغِلُ عَنِ الحَقِّ وَلَا تُعَانِدُهُ) المنزلة الأولى: تجعل الإنسان ينشغل عن الحقّ ولكن لا يعاند الحقّ، (مِثلُ الأَفكَارِ وَالهُمُومِ الّتي فِي عَلَائِقِ الدُّنيَا، وَشَهَوَاتِ النَّفسِ) وهذا مثل ما ترينه الآن: مشغولين بالدُّنيا والهموم وشهوات النّفس، ولكن لو ذكّرتهم بالله يتذكّروا، إلّا أنّهم مشغولين.

المنزلة الثّانية: في الباطل حالته أصعب، وهذه المنزلة في الباطل صاحبها (يعَانِدُ الحَقَّ وَتَصُدُّ عَنه، مِثلُ الآرَاءِ البَاطِلَةِ، وِالأَهوَاءِ المُردِيةِ مِنَ الكُفرِ وَالنِّفَاقِ وَالبِدَعِ وَشِبْهِ ذَلِكَ.)

ما موضوع القلب؟ قال: (بَل القَلبُ لَم يُخلَقْ إِلَّا لِذِكرِ اللهِ، فَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلَيسَ مَوضِعًا لَهُ.)

فهو ما خلق إلّا ليذكر ربّنا، ونحن في هذه الأزمة تلحظون أنّه لأيّ صورة يريدون منك ألّا تذكر الله، ولو نظرنا إلى بداية الأزمة، كان كلّ التّشتيت حول أنّ هذا المرض صنعه فلان وصنعه فلان! حسنًا سنقول إنّه صنعه، السّؤال: **من أذن له؟ ومن نشره؟** نحن في هذا الموقف يجب ألّا نرى إلّا الله، حتى لو كان

مصنوعًا؛ فلا تخبرني الآن أن المرض مصنوع، بل أخبرني: كيف أفكّر من جهة ربّ العالمين، فقلبك ما خلق إلّا لذكر الله، ثمّ تأتي الأحداث تركّز على أنّ الأسباب هي الّتي ستنقذك، وليس ربّ الأسباب، تركّز تركّز في قلوب النّاس أنّ الأسباب ستكون سببًا للنّجاة وأنت تعرف إذا أذن الله بأن تنفع الأسباب نفعت - وهذه الأسباب من عند ربّ العالمين- وإذا ما أذن أن تنفع والله ما نفعت ولو اجتمع أهل الأرض فكن مطمئنًّا، وأي سبب لا تأخذه إلّا وأنت تذكر ربّ العالمين، قلبك خلق لهذه الوظيفة، أرجو ألّا تنكشف عنّا الأزمة ونحن نذكر المرض أكثر ممّا نذكر الرّب الشّافي، نذكر الأخبار والأحداث أكثر ممّا نذكر الحقّ، ولقد ذكرت لكم سابقًا أن في السّنة الّتي حصل فيه الدّهس في الحجّ -نسأل الله أن يغفر للجميع- النّاس ذكروا الحادث أكثر ممّا ذكروا الله، الحادث كان في منى يوم العيد، وهذا اليوم المفترض أن يكون لذكر الله أكثر من كلّ شيء الله ابتلالنا بذلك البلاء، وأصبح النّاس داخلين خارجين يتكلّمون عن الأعداد، يتكلّمون عن الأسباب، وانتهى الحادث وانتهى ذلك اليوم، واليوم الثّاني، واليوم الثّالث، يقولون: "والأسباب، ومن فعل هذا؟ وبأيّ طريقة؟" وذهب الحجّ ولم يذكروا ربّنا! وفي السّنة الّتي قبلها كان القطار هو الموضوع، والسّنة الّتي بعدها كان القطار هو الموضوع، السّنة الّتي ضاق فيها القطار وتعب النّاس في القطار؛ كان القطار هو الموضوع، والسّنة الّتي سَهُلَ فيها ركوب القطار، أيضًا كان القطار هو الموضوع! يا جماعة أنتم قادمون للحجّ لكي تذكروا أداة النّقل! أم قادمون للحجّ لتذكروا ربّنا؟! أكيد قادمون لتذكروا ربّنا؛ لكن شياطين الأنس والجنّ!

فكانوا والله يدخلون على بعض في سنة الدّهس يقولون: "السّلام عليكم" ثمّ يقولون: "إنّ الحجاج الفلانيّين هم السّبب!" وفي سنة القطار يقولون: "القطار تركنا" وفي السّنة الّتي سهل فيها القطار يقولون: "وصلنا في ثلاث عشر دقيقة، وكان الأمر يسيرًا"!! أنت تركب أداة مواصلات لتصل إلى الله فلا تذكر إلّا الله، ثمّ تضيع الأربع أيّام حسرة!! ليلة عرفة خائفين "كيف يكون يوم النّفرة! يوم النّفرة بعد العصر لمّا وصلنا عرفة، المفترض أن يكون هناك دعاء كثير، فينشغلوا عن ذلك ويقولون: "كيف ننفر! كيف نذهب إلى مزدلفة! ستذهبون برفقة ربّ العالمين، تقولون: "أنت الصّاحب في السّفر" سِر -هداك الله- لا تفكّر كيف نذهب، هذا وقت الدّعاء! ذهبنا مزدلفة، يقولون: "كيف سننفر منى؟" هذا وقت ذكر الله، أيام معدودات. وهذه التّجربة تتكرّر كلّ سنة في الحجّ تجد الجميع مشغول إلّا من رحم ربّي، لكن من رحم ربّي هؤلاء أعداد تحسب على يدك، وهذه الأزمة تشبه أزمتنا الحالية، أصيبنا لنذكر ربّنا، هذه وظيفتك، بل القلب لم يخلق إلّا لذكر الله.

تجد النّاس تكلّموا عن كلّ شيء إلّا عن الله، تجد الّذي يخاف على أمواله يقول لك: "الذّهب صعد أو هبط" وصاحب الشّركات ذهب يبحث عن الإجراءات الّتي سيتّخذها لتحلّ مشاكله، وآخرون يسألون: هل سنخرج!! هل سنجد بضاعة! هل سنجد طعام! وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وما يدريك هل ستكون أنت من أهل الدُّنيا غدًا، أو لست من أهلها؟! ماذا ننتظر أن يحصل أكثر من ذلك لنذكر ربّنا؟ ألم يُريك قدرته؟ ألم يُريك كيف أنّه محيط بالخلق؟ أرانا أنّه على كلّ شيء قدير! وأنّه محيط بالخلق!

هل ما زلت آمنًا؟ {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}[1] نحن في وسط هذه الأحداث، إخواننا نزل عليهم من الأمطار والسّيول ما أذهب ديارهم، وغيرهم في بلادنا وفي بلاد المسلمين أصابهم ما أصابهم.

هل تنتظر أن تغرقك فيضانات أو تسقط عليك السّماء لتصدّق! اعلم أنّ قلبك موجود لذكر الله، علينا في هذه الأزمة والنّاس كلّهم يتكلّمون أن ندعوهم إلى ذكر الله ونقوم بعمل برامج لحثّهم على ذكر الله، وإذا لم نستطع فلنهرب قدر المستطاع ولا نشارك في الكلام ونذكر ربّ العالمين، أمّا ما يفعله السّخفاء التّافهين الّذين يؤلّفون النّكات! فهذا من الاستهانة بالحدث، والمشكلة أنّ هذه الاستهانة تجرّ غضب الله أكثر على النّاس، أستغفر الله العظيم.

الواحد فينا لو كان غضبانًا وجاء ابنه ينكّت أو يتكلّم بكلمة استهزاء أو أيّ كلمة يزداد الانسان غضبًا عليه، هذا وأنت مهما كان لا تستطيع أن تبطش به، فكيف بالسّفاهة والاستهانة؟

ونحن في حِلم الله. إن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي، لكن عافيتك أوسع لنا.

الشّاهد: هذا القلب وجد لذكر الله، فإذا أصابتنا المصائب كان الواجب زيادة ذكر الله.

ولذلك لا بدّ لنا من زيادة ورد الذّكر أكثر ممّا سبق، والحمد لله مسألة الذّكر واسعة، تذكر الله بأذكار الصّباح وأذكار المساء والأذكار المؤقّتة في الأحوال وفي الأزمنة، تذكر الله ذكرًا مطلقًا، وتذكر الله بطلب العلم، الحمد لله.

فلذا أنتم احتسبوا على الله أن تُوعّوا النّاس وخصوصًا الصّغار تُوعونهم لكيلا تمرّ هذه التّجربة عليهم ولا يذكرون منها إلّا الأشياء التّافهة، واسأل أيّ من النّساء الأربعينيات والخمسينيات: ما الّذي تذكرينه من حرب الخليج؟ تقول: صافرات الإنذار أو الّذي وضع على الشّبابيك؛ لأنّهم في وقتها كانوا يهدّدونهم بالكيماويات، فكانت الدّولة -جزاها الله خيرًا- قد نبّهت النّاس كلّهم في الإعلام عن الطّريقة السّليمة الّتي

---

[1] سورة الملك: ١٦-١٧.

تحفظهم من مثل هذه الكيماويات. ثمّ انظر كيف نتذكّر القصّة ونبتسم؛ على أنّه حدث نهّنا الله به وسلّمنَا، والحمد لله لا تشردّنا ولا ذقنا، هذا من حلم الله علينا!

فنحن الآن لا نريد للصّغار أن يكبروا ولا يتذكّروا إلّا الإجراءات الاحترازيّة! لا!! لا بدّ أن يتذكّروا أنّهم في مثل هذه الأيام عرفوا الله أكثر، ولا بدّ أن يتذكّروا أحزانًا كانت بسبب فقدان الصّلاة وبسبب الحرمان من الطّواف، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون!

لا بدّ أن يتذكروا هذه الأيام كالدّرس: **أن لا تغضب الله**، أنت تصبح في حال وتمسي في حال آخر. واليوم الناس يجب أن يتذكّروا: قوله صلّى الله عليه وسلّم: ((مَنْ أصبَحَ منكمْ آمنًا في سِرْبِهِ، معافًى في جَسَدِهِ، عندَهُ قوتُ يومِهِ، فكأنَّما حِيزَتْ لَهُ الدّنيا بحذافيرِهَا))[1] واليوم النّاس هذه مرادتاهم وهذا ما يبحثون عنه؛ هذه الثّلاثة أشياء: أن يصبح آمنًا في بلده، لا تحصل أيّ جائحة تفقد البلد توازنها -اللّهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين- وأن يكون معافًا في بدنه، لا يأتيه المرض -أو أيّ مرض آخر- وأن يجد قوت يومه لا يفقده، هذه الأساسيّات مطلب النّاس كلّها. فالمفترض أن نخرج من هذه الأزمة وقد عرفنا ربّنا.

وأنتم عليكم وظيفة، كلّ المربّين والمربّيات عليهم وظيفة مهمة في جعل ذكريات هذا الوقت هي التّوبة إلى الله، الاستغفار، طلب رضا الله، فتبقى هذه الأيام نافعة حتى لو ما بقيت أحداثها، لكن نستفيد من هذا الحاصل في بناء المعرفة بالله عزّ وجلّ.

إذًا هذا هو الشّق الأوّل من الكلام: (إِذَا مَا وَضَعتَ القَلبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ) أي: إذا وضعت القلب في موضع الباطل ولم تضعه في موضع الحقّ، بغير إناء.

قال:

ثُمَّ ذَكَرَ ثَانِيًا وَصْفَ العَدَمِ فِيهِ، فقال: "بِغَيرِ إِنَاءٍ"، ثُمَّ يَقُولُ: إِذَا وَضَعْتَهُ بِغَيرِ إِنَاءٍ ضَيَّعْتَهُ، وَلَا إِنَاءَ مَعَك، كَما نَقُولُ: حَضَرتُ المَجلِسَ بِلَا مَحبَرَةٍ، فَالكَلِمَةُ حَالٌ مِنَ الوَاضِعِ، لَا مِنَ المَوضُوعِ، وَاللهُ أعلَمُ.

وَبَيَانُ هَذِهِ الجُملَةِ -وَاللهُ أَعلَمُ- أَنَّهُ يقولُ: إِذَا مَا وَضَعْتَ قَلبَكَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ، فَاشتَغَلَ بِالبَاطِلِ، وَلَم يَكُنْ مَعَكَ إِنَاءٌ يُوضَعُ فِيهِ الحَقُّ، ويُنْزِلُ إِلَيهِ الذِّكرُوَالعِلمُ الّذي هُوَحَقُّ القَلبِ، فَقَلبُكَ إِذَا مُضيَّعٌ، ضَيَّعْتَهُ مِن وَجهَيِ التَّضييعِ، وَإِن كَانَا مُتَّحِدَينِ مِن جِهَةِ أَنَّكَ وَضَعْتَهُ فِي غَيرِ مَوضِعٍ، وَمِن جِهَةِ أَنَّهُ لَا إِنَاءَ مَعَكَ يَكُونُ وِعَاءً لِلحَقِّ الّذي يَجِبُ أَن يُعطَاهُ، كَمَا لَو قِيلَ لِمَلِكٍ قَد أَقبَلَ عَلَى اللَّهْوِ: إِذَا اشتَغَلْتَ بِغَيرِ المَملَكَةِ، وَلَيسَ فِي المَملَكَةِ مَن يُدَبِّرُهَا فَهُوَ مُلْكٌ ضَائِعٌ.

---

[1] أخرجه التّرمذي (٢٣٤٦)، حسّنه الألبانيّ.

لَكنَّ الإِنَاءَ هُنَا هُوَ القَلبُ بِعَينِهِ، وَ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ لَأَنَّ القَلبَ لَا يَنُوبُ عَنهُ غَيرُهُ فِيمَا يَجِبُ أَن يُوضَعَ فِيهِ {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}[1].

وَ إِنَّمَا خَرَجَ الكَلَامُ فِي صُورَةِ اثنَينِ بِذِكرِ نعتَينِ لِشَيءٍ وَاحِدٍ، كَمَا جَاءَ نَحوُهُ فِي قَولِهِ تَعَالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ أَنزَلَ الْفُرْقَانَ}[2] قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ: "هُو القُرآنُ: فَرَّقَ فِيهِ بَينَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَالحَقِّ وَالبَاطِلِ".

وَهَذَا لِأَنَّ الشَّيءَ الوَاحِدَ إِذَا كَانَ لَهُ وَصفَانِ كَبِيرَانِ فَهُوَ مَعَ وَصفٍ وَاحِدٍ كَالشَّيءِ الوَاحِدِ، وَمَعَ الوَصفَينِ بِمَنزِلَةِ الاِثنَينِ، حَتَّى لَو كَثُرَتْ صِفَاتُهُ لَتَنَزَّلَ مَنزِلَةَ أَشخَاصٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ الّذي يُحْسِنُ الحِسَابَ وَالطِّبَّ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ حَاسِبٍ وَطَبِيبٍ؟ وَالرَّجُلَ الّذي يُحسِنُ النِّجَارَةَ وَالبِنَاءَ يَكُونُ بِمَنزِلَةِ نَجَّارٍ وَبَنَّاءٍ؟

وَالقَلبُ لَمَّا كَانَ يَقبلُ الذِّكْرَ والعِلْمَ، فَهُوَ بِمَنزِلَةِ الإِنَاءِ الّذي يُوضَعُ فِيهِ المَاءُ.

وَ إِنَّمَا ذَكَرَ فِي هَذَا البَيتِ الإِنَاءَ مِن بَينِ سَائِرِ أَسمَاءِ القَلبِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الّذي يَكُونُ رَقِيقًا وَصَافِيًا وَهُوَ الّذي يَأتِي بِهِ المُستَطعِمُ المُستَعطِي فِي مَنزِلَةِ البَائِسِ الفَقِيرِ، وَلَمَّا كَانَ يَنصَرِفُ عَن البَاطِلِ فَهُوَ زَكِيٌّ وَسَلِيمٌ، كَأَنَّهُ اثنَانِ.

وَتَبَيَّنُ فِي الصُّورَةِ أَنَّ الإِنَاءَ غَيرُ القَلبِ، فَهُو يَقُولُ: "إِذَا وَضَعْتَ قَلْبَكَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ"، وَهُوَ الّذي يُوضَعُ فِيهِ الذِّكْرُ وَالعِلمُ، وَلَم يَكُنْ مَعَكَ إِنَاءٌ يُوضَعُ فِيهِ المَطلُوبُ، فَمَثَلُكَ مَثَلُ رَجُلٍ بَلَغَهُ أَنَّ غَنِيًّا يُفَرِّقُ عَلَى النّاس طَعَامًا، وَكَانَ لَهُ زُبْدِيَّةٌ أَو سُكُرُّجَةٌ فَتَرَكَهَا، ثُمَّ أَقبَلَ يَطلُبُ طَعَامًا، فَقِيل لَهُ: هَاتِ إِنَاءً نُعطِيكَ طَعَامًا، فَأَمَّا إِذَا أَتَيتَ وَقَد وَضَعْتَ زُبدِيَّتَكَ -مَثَلًا- فِي البَيتِ وَلَيسَ مَعَكَ إِنَاءٌ نُعطِيك، فَلَا تأخُذُ شيئًا، فَرَجَعْتَ بِخُفَّيْ حُنَينٍ.

وَإِذَا تَأَمَّلَ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ بِأَسَالِيبِ البَيَانِ وَتَصَارِيفِ اللِّسَانِ، وَجَدَ مَوقِعَ هَذَا الكَلَامِ مِنَ العَرَبِيَّةِ وَالحِكمَةِ كِلَيهِمَا موقعًا حَسَنًا بَلِيغًا.

حتى لا نبتعد عن المقصود نبدأ من (الإِنَاءَ غَيرُ القَلبِ) لكن قبل ذلك انظروا بيت الشّعر:

إِذَا مَا وَضَعْتَ القَلْبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ ** بِغَيْرِ إِنَاءٍ، فَهُوَ قَلْبٌ مضَيَّعُ

هو الآن كأنّه شبّه تشبيهين:

---

(1) سورة الأنعام: ١٦٤.

(2) سورة آل عمران: ٣-٤.

الأوّل يقول: "إذا ما وضعت القلب في غير موضعٍ بغير إناء" وضعته في المكان غير الصّحيح وليس معه إناء.

الثّاني: أنّ القلب هو نفسه الإناء، انظري حين قال: (لَكِنَّ الإِنَاءَ هُنَا هُوَ القَلبُ بِعَينِهِ).

الآن يقول: (وَتَبَيَّنُ فِي الصُّورَةِ أَنَّ الإِنَاءَ غَيرُ القَلبِ) كأنّه الآن تبيَّن وأصبحنا متأكدين وواضح بيت الشّعر أصبح متبينًا (إِذَا مَا وَضَعْتَ القَلْبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ ** بِغَيْرِ إِنَاءٍ) كأن القلب صار شيئًا وإناؤه كأنّه شيء ثانٍ، فهو يقول: (إِذَا مَا وَضَعْتَ القَلْبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ) وهو الّذي يوضع فيه الذّكر والعلم، يعني: ما وضعته في الموضع الصّحيح الّذي فيه الذّكر والعلم ولم يكن معك إناء يوضع فيه المطلوب (فَمَثَلُكَ مَثَلُ رَجُلٍ بَلَغَهُ أَنَّ غَنِيًّا يُفَرِّقُ عَلَى النّاس طَعامًا، وَكَانَ لَهُ زُبْدِيَّةٌ أَو سُكُرُّجَةٌ -ثم- فَتَركَهَا، ثُمَّ أَقبَلَ يَطلُبُ طَعَامًا -ذهب للغني- فَقِيل لَهُ: هَاتِ إِنَاءً نُعطِيكَ طَعَامًا، فَأَمَّا إِذَا أَتَيتَ وَقَد وَضَعْتَ زُبدِيَّتَكَ -مَثَلًا- فِي البَيتِ وَلَيسَ مَعَك إِنَاءٌ نُعطِيك، فَلَا تأخُذُ شيئًا، فَرَجَعْتَ بِخُفَّيْ حُنَينٍ) هذه حالة القلب، إذا وضعته في غير موضعٍ كأنّك أرسلته إلى مواطن الذّكر والانتفاع وليس معه إناء يحمل فيه ويستوعب.

هذا الكلام ملخّص ما أراد أن يقول، الآن نقول بالتّفصيل، فلنعود حيث قال: (فَذَكَرَ أَوَّلًا وَصفَ الوُجُودِ مِنهُ، فَقَالَ: "إِذَا مَا وَضَعتَ القَلبَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ"، يَقُولُ: إِذَا شَغَلْتَهُ بِمَا لَم يُخْلَقْ لَهُ، فَصَرَفْتَهُ إِلَى البَاطِلِ حَتَّى صَارَ مَوضُوعًا فِيهِ) والباطل كما هو متبيّن أحد درجتين إمّا:

١- تُشْغِلُ عَنِ الحَقِّ وَلَا تُعَانِدُهُ.
٢- تُعَانِدُ الحَقَّ وَتَصُدُّ عَنه.

والنّاس هكذا في الباطل قلوبهم تائهة اليوم وكلّ يوم هم أحد الاثنين:

- إمّا يُعاندك ويقول: "هذا ليس من غضب الله" كما يقولون: "الكسوف والخسوف ليسوا آيات يخوّف الله بها الخلق" ويقولون: "إذا كان هذا آية من آيات الله ودليل غضب الله لماذا نزل على المؤمنين؟" والجواب -بكلّ يسر وسهولة وهذا الكلام لا يرقى أن يكون شبهة-:

فإذا أحد أخبرك بهذا تقول له: "البحر الّذي شقّه الله لموسى كان على موسى رحمة وكان على فرعون عذاب، فبنفس القياس يكون نفس الشّيء على ناس خير وعلى ناس شرّ هذه قدرة الله والله على كلّ شيء قدير.

والقرآن ينزل على أقوام فيكون هدى وبيان وشفاء ويكون على أشخاص زيادة عمىً عليهم.

والرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- في حديث البخاريّ قد أخبر عائشة -رضي الله عنها- أنّ المرض على المؤمنين رحمة وعلى الكافرين رجس وعذاب.

فلا يوجد إشكال في أن نفهم هذه المسألة بأنّها من قدرة الله، بشرط لأن يسألونك هذا السّؤال وهم لا يعاندون، فلو سمعوا أهل العلم ما صَعُب الأمر عليهم.

- نرى الآن الجماعة الّتي تعاند يُصرّون على أنّ كلامهم صحيح وهم يُقال لهم: إذا وضعت القلب في الباطل تكون شغلته عن الوظيفة التي هي: ذكر الله.

ثمّ جاء وصف آخر: (**ثُمَّ ذَكَرَ ثَانِيًا وَصْفَ العَدَمِ فِيهِ، فقال: "بِغَيرِ إِنَاءٍ"، ثُمَّ يَقُولُ: إِذَا وَضَعْتَهُ بِغَيرِ إِنَاءٍ ضَيَّعْتَهُ، وَلَا إِنَاءَ مَعَك، كَما نَقُولُ: حَضَرتُ المَجلِسَ بِلَا مَحبَرَةٍ، فَالكَلِمَةُ حَالٌ مِنَ الوَاضِعِ، لَا مِنَ المَوضُوعِ** -الّتي هي كلمة: "بغير إناء" الّذي وضع قلبه وضعه بغير إناء- **وَبَيَانُ هَذِهِ الجُملَةِ** -والله أعلَمُ- **أَنَّهُ يقولُ: إِذَا مَا وَضَعْتَ قَلبَكَ فِي غَيرِ مَوضِعٍ، فَاشتَغَلَ بِالبَاطِلِ،** -حصل منه الاشتغال بالباطل- **وَلَم يَكُنْ مَعَكَ إِنَاءٌ يُوضَعُ فِيهِ الحَقُّ، ويُنْزِلُ إِلَيهِ الذِّكرُ وَالعِلمُ الّذي هُوَ حَقُّ القَلبِ، فَقَلبُكَ إِذَا مُضيَّعٌ،** أكيد جمعت عليه مصيبتين:

- المصيبة الأوّلى: أنّك شغلته بالباطل.
- والمصيبة الثّانية: أنّك ما تركت له إناء يأخذ منه الحقّ.

ضَيَّعْتَهُ مِن وَجهَي التَّضيِيعِ، وَإِن كَانَا مُتَّحِدَينِ مِن جِهَةٍ -كأنّهم يأتون من جهة واحدة لكن ما دمت شغلته بالباطل إذًا شغلته عن الحق- **كَانَا مُتَّحِدَينِ مِن جِهَةٍ، وَمِن جِهَةٍ أَنَّهُ لَا إِنَاءَ مَعَكَ يَكُونُ وِعَاءً لِلحَقِّ الّذي يَجِبُ أَن يُعطَاهُ، كَمَا لَو قِيلَ لِمَلِكٍ قَد أَقبَلَ عَلَى اللَّهْوِ: إِذَا اشتَغَلْتَ بِغَيرِ المَملَكَةِ، وَلَيسَ فِي المَملَكَةِ مَن يُدَبِّرُهَا فَهُوَ مُلْكٌ ضَائِعٌ.**

فهذا زيادة بيان أُبيّن وظيفتك ذهبت أي لم تشتغل بوظيفتك، ووظيفتك نفسها أصبحت فارغة، لا يوجد بها إناء، أصبحت فارغة، بعد ذلك يعيد ويقول: **لَكِنَّ الإِنَاءَ هُنَا هُوَ القَلبُ بِعَينِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ القَلبَ لَا يَنُوبُ عَنهُ غَيرُهُ فِيمَا يَجِبُ أَن يُوضَعَ فِيهِ {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}.**

هذا الآن سيكون استطرادًا، ماذا يريد أن يقول في هذا الكلام؟ (**وَإِنَّمَا خَرَجَ الكَلَامُ فِي صُورَةِ اثنَينِ بِذِكرِ نعتَينِ لِشَيءٍ وَاحِدٍ**) هو قلب وإناء، هو شيء واحد لكن ذكر بنعتين، فأصبح كأنّه شيئين، واضح جدًا في الآية: {**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**} الآن سنفكّر {**عَلَيْكَ**} أي: على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنزل عليه الكتاب بالحقّ، **ماذا سمّى الله ما أنزله عليه؟**

سمّاه الكتاب، جاءت الآية الثّانية: {وَ أَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ أَنزَلَ الْفُرْقَانَ} **هل الفرقان غير الكتاب؟** (قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ: "هُو القُرآنُ: فَرَّقَ فِيهِ بَينَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَالحَقِّ وَالبَاطِلِ) عندما تقرأ تظنّ أنّه "نزّل الكتاب بالحقّ شيء" و "أنزل الفرقان" شيء آخر، وهو على هذا الرأي في التّفسير، لكن ليس كلّ المفسّرين متّفقين، يعني: هناك من قال: إنّ الفرقان عائد إلى جميع الكتب، فجميع الكتب الّتي أنزلها الله، فرّقت بين الحقّ والباطل. لكن نحن على هذا المعنى الّذين قالوا: "يصبح القرآن له وصفين: جهة الوصف والنّعت. فكأنّه صار شيئين، وكثير ممّن يقرأ هذه الآية يحصل عنده سؤال استفهام: هل الفرقان هو الكتاب أم شيء آخر؟

يقول: (وَهَذَا لِأَنَّ الشَّيءَ الوَاحِدَ إِذَا كَانَ لَهُ وَصفَانِ كَبِيرَانِ فَهُوَ مَعَ وَصفٍ وَاحِدٍ كَالشَّيءِ الوَاحِدِ، وَمَعَ الوَصفَينِ بِمَنزِلَةِ الاِثنَينِ) هذا المقصود، يعني: الشّيء الواحد لو كان له وصفان كبيران، مع الوصف الواحد يصبح كالشّيء الواحد، مع الوصفين يصبح كأنّه شيئين وليس شيئًا واحدًا.

(حَتَّى لَو كَثُرَتْ صِفَاتُهُ لَتَنَزَّلَ مَنزِلَةَ أَشخَاصٍ -كلّ وصف كأنّه شخص- أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ الّذي يُحْسِنُ الحِسَابَ وَالطِّبَّ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ حَاسِبٍ وَطَبِيبٍ؟ وَالرَّجُلَ الّذي يُحسِنُ النِّجَارَةَ وَالبِنَاءَ يَكُونُ بِمَنزِلَةِ نَجَّارٍ وَبَنَّاءٍ؟) هو شخص واحد، لكن بسبب الصّفات المتعدّدة، أصبح كأنّه أشخاص، يعني هو الآن يريد أن يقول: لِمَ وصف القلب بوصفين: "وضعته في غير موضعٍ" ثمّ قال: "بغير إناء" ؟ كأنّه واحد ثاني، وهو نفسه الإناء، والآن هنا موضوعنا وكان ما قبله عبارة عن استطراد قال: (وَالقَلبُ لَمَّا كَانَ يَقبلُ الذِّكْرَ والعِلْمَ، فَهُوَ بِمَنزِلَةِ الإِنَاءِ الّذي يُوضَعُ فِيهِ المَاءُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ فِي هَذَا البَيتِ الإِنَاءَ مِن بَينِ سَائِرِ أَسمَاءِ القَلبِ) لأنّ "الإناء" أحد أسماء القلب (لِأَنَّهُ هُوَ الّذي يَكُونُ رَقِيقًا وَصَافِيًا وَهُوَ الّذي يَأتِي بِهِ المُستَطعِمُ المُستَعطِي فِي مَنزِلَةِ البَائِسِ الفَقِيرِ) لذلك اختار: "أتيت بغير إناء" **لماذا بغير إناء؟** لأنّ هذا هو الوصف اللّائق بالعلم؛ لأنّه حين يأتي الإنسان بغير إناء يكون كـ -المُستَطعِمُ المُستَعطِي- أتى بغير أداةٌ، وفي نفس الوقت (وَلَمَّا كَانَ يَنصَرِفُ عَن البَاطِلِ فَهُوَ زَكِيٌّ وَسَلِيمٌ) الإناء هذا الوصف للقلب سنقول أنّه: إذا لم يكن فيه باطل فهو زكيّ وسليم يصلح للإناء (وَتَبَيَّنُ فِي الصُّورَةِ أَنَّ الإِنَاءَ غَيرُ القَلبِ) لكننا نقول: إنّ الإناء هو القلب.

قال:

(وَإِذَا تَأَمَّلَ مَن لَهُ بَصِيرَةٌ بِأَسَالِيبِ البَيَانِ وَتَصَارِيفِ اللِّسَانِ، وَجَدَ مَوقِعَ هَذَا الكَلَامِ مِنَ العَرَبِيَّةِ وَالحِكمَةِ كِلَيهِمَا موقعًا حَسَنًا بَلِيغًا؛ فَإِنَّ نَقِيضَ هَذِهِ الحَالِ المَذكُورَةِ أَن يَكُونَ القَلبُ مُقبِلًا عَلَى الحَقِّ وَالعِلمِ وَالذِّكرِ، مُعرِضًا عَن غَيرِ ذَلِكَ.

وَتِلكَ هِيَ الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبرَاهِيمَ عليه السلام، فَإِنَّ الحَنَفَ هُوَ: إِقبَالُ القَدَمِ وَمَيلِهَا إِلَى أُختِهَا؛ فَالحَنَفُ: المَيلُ عَن الشَّيءِ بِالإِقبَالِ عَلَى آخَرَ.

فَالدِّينُ الحَنِيفُ: هُو الإِقبَالُ عَلَى اللهِ وَحدَهُ، وَالإِعرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ، وَهُوَ الإِخلَاصُ الّذي تَرجَمَتْهُ كَلِمَةُ الحَقِّ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

اللَّهُمَّ ثَبِّتنَا عَلَيهَا فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ.

وَهَذَا آخِرمَا حَضَرَفِي هَذَا الوَقتِ.

الآن هو سيتكلّم عن البيت الّذي فيه وصف لحال الإنسان عندما يضيّع قلبه:

إِذَا مَا وَضَعْتَ القَلْبَ فِي غَيرِمَوضِعٍ بِغَيْرِإِنَاءٍ، فَهُوَقَلْبٌ مضَيَّعُ

يقول: (وَإِذَا تَأَمَّلَ مَن لَهُ بَصِيرَةٌ بِأَسَالِيبِ البَيَانِ وَتَصَارِيفِ اللِّسَانِ، وَجَدَ مَوقِعَ هَذَا الكَلَامِ مِنَ العَرَبِيَّةِ وَالحِكمَةِ كِلَيهِمَا موقعًا حَسَنًا بَلِيغًا؛ فَإِنَّ نَقِيضَ هَذِهِ الحَالِ المَذكُورَةِ أَن يَكُونَ القَلبُ ما به؟!) يعني: إذا وضعته في غير موضع وليس معه إناء؛ ضاع، هنا ماذا تفعل به؟!! ضعه في موضعه، واجعل موضوعه العلم، اجعله مقبلًا على الحقّ والعلم والذّكر، بذلك سيكون معه إناء لأنّه لا يستطيع أن يستوعب إلّا الحقّ، لا يريحه إلّا ذكر الله (مُعرِضًا عَن غَيرِذَلِكَ) فلا بدّ أن يكون جامعًا بين الاثنين: بين أن يكون مقبلًا على الحقّ والعلم والذّكر، معرضًا عن غير ذلك.

الآن سيشير إشارة والله أعلم أنّها غاية في اللّطف ويريد أن يقول "لماذا الحنيفيّة توافق هذا الكلام تمامًا"

يقول: (الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبرَاهِيمَ عليه السلام، فَإِنَّ الحَنَفَ هُوَ: إِقبَالُ القَدَمِ وَمَيلِهَا إِلَى أُختِهَا) يعني يكون له مشية فيها شيء من الانحراف، النّاس الطّبيعيين تكون أقدامهم قريبة من أن تكون مستوية في حال السّير، أمّا الأحنف أقدامه عندما يسير تكون مائلة على بعضها، مقبله على بعضها، فيكون له نوع سير مختلف عن سير النّاس، فمنها أتت الحنيفيّة، **فَالحَنَفُ:** بمعنى: **المَيلُ**، والأحنف: في الأصل: من مالت قدماه على بعض وكانت له طريقة سير مختلفة عن النّاس.

الآن من هذا المعنى أتت الحنيفيّة.

فما المعنى المعنويّ؟! قال: (**المَيلُ عَن الشَّيءِ بِالإِقبَالِ عَلَى آخَرَ**) والآن **ما علاقة القلب؟!** لا نريد منك إلّا شيء واحد، أن تعرض عن الباطل، وإن أعرضت عن الباطل ولديك إناء -الذي هو القلب- **ماذا سيحصل؟!** أعرض عن الباطل وضع القلب في هذا الموضع **وماذا سيفعل القلب؟!** سيقبل على الحقّ.

(**فَالحَنَفُ: المَيلُ عَن الشَّيءِ بِالإِقبَالِ عَلَى آخَرَ**) فأنت اجعله يُعرِض عن الباطل وضعه في مكان الحقّ هو سيستقبل الحقّ.

(**فَالدِّينُ الحَنِيفُ: هُو الإِقبَالُ عَلَى اللهِ وَحدَهُ، وَالإِعرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ**) إذًا **أنت ماذا تفعل في قلبك؟!** ابدأ بالإعراض عمّا سوى الله وضعه في موضعه الصّحيح **هو ماذا سيفعل؟!** سيقبل على الله وحده (**وَهُوَ الإِخلَاصُ الّذي تَرجَمَتْهُ كَلِمَةُ الحَقِّ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله**) ملخص ما مرّ معنا:

أنّ القلب خلق لأجل أن يَعلَم عن الله ويؤمن بالله.

(**والقلبُ هُوَ نَفْسُهُ لَا يَقْبَلْ إِلَا الحَقّ، فَإِذَا لَمْ يُوضَعْ فِيهِ، فَإِنَهُ لَا يَقْبَل غَيرَ مَا خُلِق لَه**).

واستشهد بقوله تعالي: {**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**}[1] والحمد لله ربّ العالمين.

(**اللَّهُمَّ ثَبِّتنَا عَلَيهَا فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ**) اللّهم آمين (**وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله العلي العظيم**.)

() سورة الفتح: ٢٣.

الفهرس

اللّقاء الأوّل ٣

اللّقاء الثّاني ٢٣

اللّقاء الثّالث ٤٥